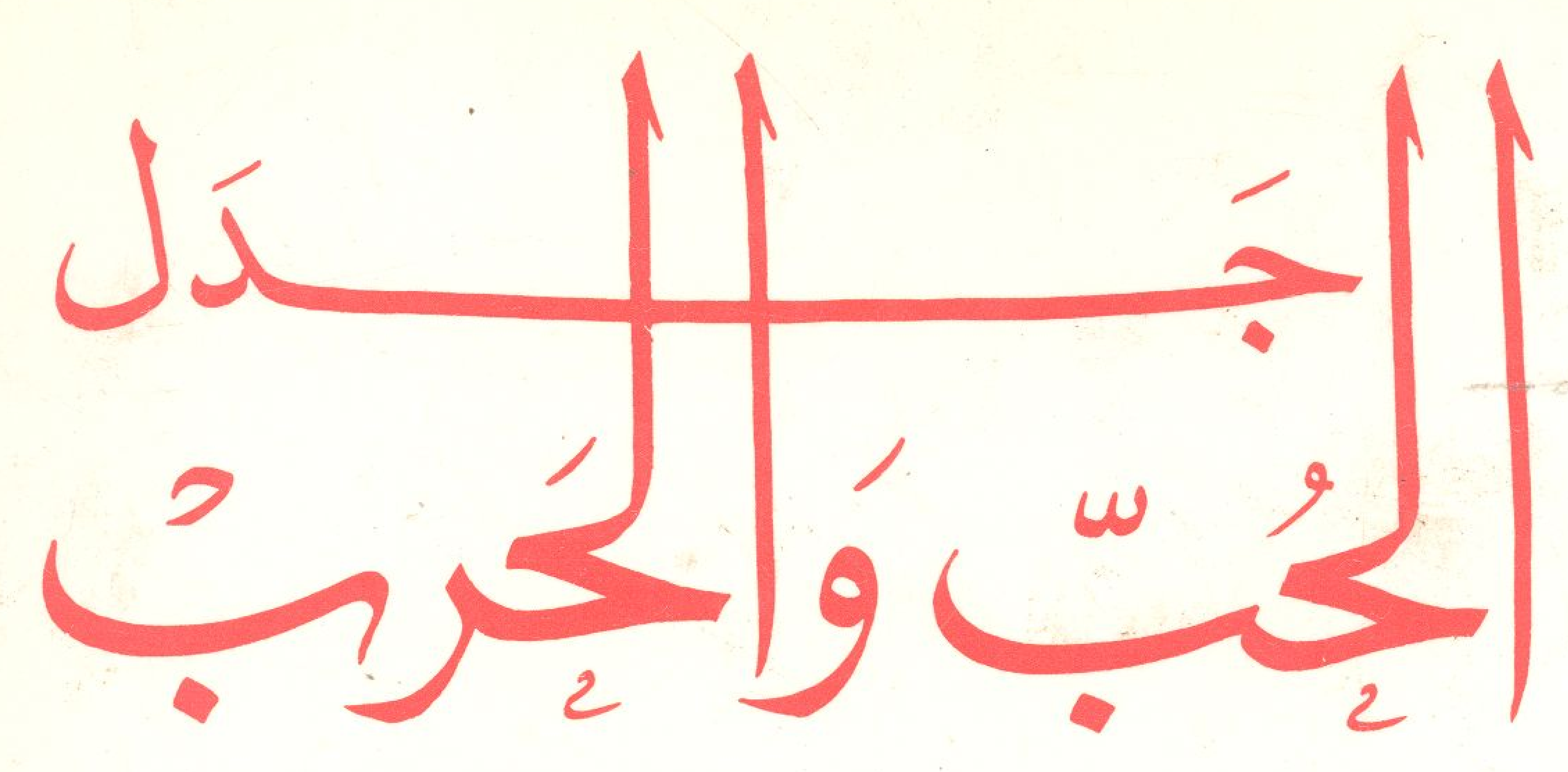




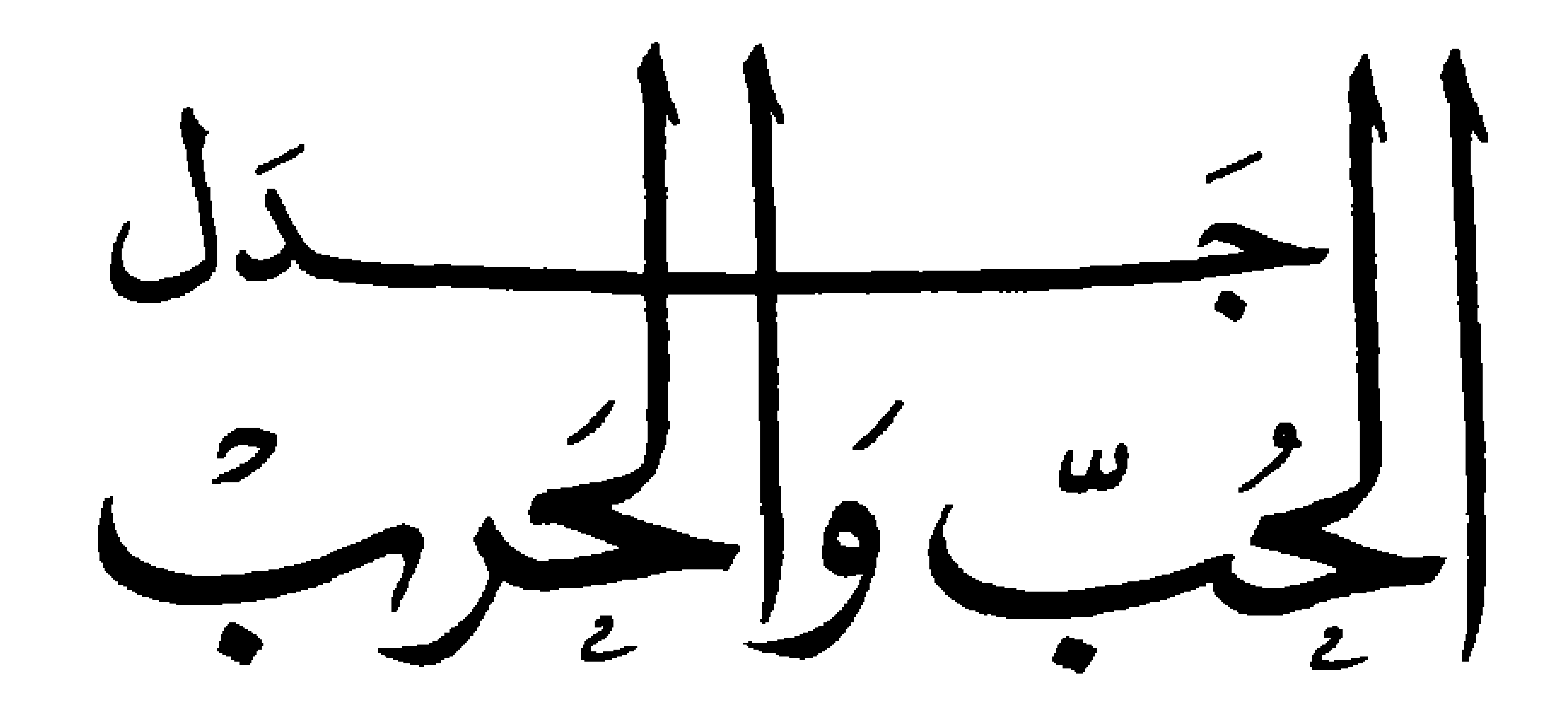
هيرقليطس

ترجمة وتقديم وتعليق : مجاهد عبد المنعم مجاهد

جَدَل
الحُبّ وَالحَرب

* هيرقليطس: جدل الحب والحرب
* الطبعة الثانية، ١٩٨٣.

* الناشر: دار التنوير للطباعة والنشر.
ص. ب. ٦٤٩٩ - ١١٣ بيروت - لبنان.
الصنوبرة - أول نزلة اللبان - بناية عساف.



هيرقليطس

ترجمة وتقديم وتعليق : مجاهد عبد المنعم مجاهد



إهداء . . .

إلى الدكتور زكي نجيب محمود

فكل ما يعطيه لنا ـ كما أعطانا هيرقليطس ـ هو أن نفكر؟

مجاهد عبد المنعم مجاهد

تصدير

لم يكتب فيلسوف اليونان العظيم هيرقليطس كتاباً بعنوان «جدل الحب والحرب»، لكنه كتب مؤلفاً بعنوان «في الطبيعة» ثم ضاع الكتاب ولم تبق سوى شذرات جمعها الدارسون في ١٢٦ شذرة تُضاف إليها ١٥ شذرة تُحاط بالشك في صحة نسبتها إليه. ولقد أعطى الدارسون هذه الشذرات أرقاماً ثابتة تظل هكذا في جميع الترجمات.

ولقد قمت بنوع من «المونتاج» الجديد لهذا الشذرات بحيث أكوِّن منها حلقات متصلة فأحاول أن أملأ ما بينها من فجوات فاحتفظت بأرقام الشذرات كما هي لكني أعدت ترتيبها في سياق يكشف عن طبيعة تفكير هيرقليطس وجعلتها تحت عنوان «جدل الحب والحرب» حيث أن هاتين المقولتين تلعبان الدور الأساسي في تفكيره.

ولقد استفدت من التقسيم الذي وضعه هويلرايت في كتابه عن هيرقليطس والذي تُرجِم ضمن كتاب «هيرقليطس فيلسوف التغير» بإشراف الدكتور علي سامي النشار. لكنه عنون الشذرات تحت عناوين موضوعات تقليدية. ولمّا كنت قد قمت في الأساس بقراءة هيجلية ـ هيدجرية في ضوء مشكلة الاغتراب بشقيها من التشيؤ والتكامل فقد وضعت الشذرات تحت عناوين تحمل تصاعداً في فهم مشكلة الاغتراب.

ولا شك أن هذه الطريقة سوف تصدم الأكاديميين الخارجيين البرانيين. .

ولكن لمّا كانت عيني على قارىء عربي معاصر له اهتماماته خارج نطاق الجامعة، ولمّا كنت على بيّنة أن الفلاسفة لا يتفلسفون حول موضوعات بل حول إشكالات وأنهم يعيشون عصرهم فإنني أتوجه باعتذار حار إليهم، خاصة وأن التعليقات التي وضعتها للشذرات ليس لها صلة بما جرى عليه العرف من التعليقات في إطار لغوي أو تاريخي، بل جعلتها تعليقات إيحائية تفتح كيف كان هيرقليطس إرهاصاً بعدد كبير من الأفكار التي تردد صداها في التفكير الفلسفي من بعده.

ولقد صدّرت الترجمة والتعليقات بدراسة عن الحب الذي يقاتل باعتبار أن هذه هي الفكرة المحورية في تفكير هيرقليطس وجعلتها على نحو بحيث تلقي ضوءاً عاماً على الشذرات وتكمل شرح الشذرات في وقت واحد وقدمت لها بلوحة قصيرة عن هيرقليطس والمراجع التي استندت إليها.

ولمّا كان الدكتور زكي نجيب محمود يجمع بين صفتين هما الأكاديمية وانفتاحه على القارىء المعاصر، ولمّا كان صاحب وضوح فكري وكان صاحب أسلوب مشرق، وكان صاحب اتجاه دفعنا نحن أبناؤه إلى الاختلاف معه فأرجو أن يتقبل إهدائي له هذه الطريقة في المونتاج والتعليق والتقديم لمفكر كان واضح الفكر برغم التواء عباراته. فللدكتور زكي نجيب محمود مع هيرقليطس فضل أن منحانا أن نفكر؟

مجاهد عبد المنعم مجاهد

هرقليطس ـ لوحة خارجية:

فيلسوف يوناني ولد في أفسوس بآسيا الصغرى حوالي ٥٤٠ ق.م وهو من أسرة أرستقراطية. عُيِّنَ كبيراً للكهنة لكنه رفض المنصب وتوفي حوالي عام ٤٧٥ ق.م. قال عنه سقراط إن ما فهمه من كتاباته شيء عظيم وما لم يفهمه شيء عظيم بالمثل غير أن كتاباته تحتاج إلى غوّاص ماهر. وشذراته المتبقية يمكن أن نجدها في:

Freeman,K.: Ancilla To The Pre - Socratic Philosophers

(اعتمدنا عليه في ترجمة الشذرات):

Kirk, G.s. And Raven, Y.E.: The Pre - Socratic Philosophers.

Vogel, C.Y. De. Greek Philosophy.

المراجع

٤٣٠ أميرة مطر : الفلسفة عند اليونان.

١٣٣٤ عبد الرحمن بدوي : ربيع الفكر اليوناني.

١٤٩٥ علي سامي النشار : نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام.

١٤٩٧ علي سامي النشار وآخرون : هيرقليطس فيلسوف التغير.

٢٣٦٥ هيدجر : نداء الحقيقة (ترجمة عبد الغفار مكاوي).

٢٤٥٨ يوسف كرم : تاريخ الفلسفة اليونانية.

2810 Bullock, A. And Stallybrass, O. (Eds):
Fontana Dictionary of Modern Thought

2816 Burner, Y.:
Greek Philosophy

3249 Freeman, K.:
Ancilla To The Pre - Socratic Philosophers

3347 Gomperz, T.:
Greek Thinkers

3395 Guthrie:
Greek Philosophy

3445 Hegel:
Lectures On The History of Philosophy

3459 Heidegger, M.:
Early Greek Thinkers

3538 Hyland, D.A.:
The Origins of philosophy

3936 Marias, Y.:
History of Philosophy

4374 Russell, B.:

A History of Western Philosophy
4556 Stace:
A Critical History of Greek Philosophy
4910 Zeller:
Outline History of Greek Philosophy

إقتراحات بقراءات أخرى

Ramoux:
Vocabulaire Et Structures de Penseé Archaique chez Heraclite (1950).

الحب يرتدي حلّة حربية

لقد كانت الفلسفة محظوظة مند بدايتها الأولى لأن أول فيلسوف مذهبي نسقي هو في الوقت نفسه الذي حدد لها وظيفتها الأساسية. . فالفيلسوف اليوناني القديم هيرقليطس أدرك منذ الوهلة الأولى أن الفلسفة ليس لها موضوع محدد وأنها طريق، ومن ثمَّ تصبح لها مهمة، وهذه المهمة هي إيقاظ النفوس ـ والإيقاظ يتم عنده بالتساؤل. . يقول في الشذرة رقم (٣٥) من الشذرات المتبقيات من كتاباته: «الذين يحبون الحكمة يجب أن يكونوا متسائلين عن أشياء عديدة في الحقيقة». وهذا التساؤل عنده يستهدف الكشف عن علل الأشياء. . ولقد قال هيرقليطس كما يروي عنه ديوجين اللائيرسي: «الحكمة الوحيدة هي معرفة السبب الذي يحكم الكل» (عن: ٣٤٤٥ الجزء الأول: ٢٩٤)(*). . إن عملية إيقاظ النفوس عند هيرقليطس هي والفلسفة شيء واحد. . جاء في الشذرة رقم (٨٩) «بالنسبة للإيقاظ هناك كون منظم واحد مشترك (بالنسبة للجميع) على حين أن كل إنسان في النوم يشيح (عن هذا العالم) إلى عالم خاص به». . هذه هي الوظيفة الأولى للفلسفة: البحث عن الأرض المشتركة بين النفوس المستيقظة. البحث عن أرض الحب الموحِّدة والمجمِّعة والتخلّص من الكراهية التي هي البحث عن الأرض المتفردة بين النفوس النائمة. . إن الأرض المشتركة هي أرض العقل،

(*) يشير الرقم الأول بين القوسين (   ) إلى رقم المرجع حسب القائمة السابقة والرقم الثاني هو رقم الصفحة. وهكذا في كافة الاحالات الواردة في الكتاب.

لأن العقل واحد عند الجميع. أمّا الأرض المنفردة فهي أرض اللاعقل. . يقول جوثري في كتابه «تاريخ الفلسفة اليونانية»: «إن الانسحاب إلى عالم خاص بالفرد يعني نزع العنصر العقلاني بمنعه عن اللوجوس [أو العقل الكلي] والحق الذي يجب أن تتغذّى عليه» (٣٣٩٥. الجزء الأول. ٤٣١).

وهكذا تحـدّد منذ بدايات الفكر الفلسفي في إطاره النسقي البحث عن الأرض المشتركة، أرض المحبة والتجميع. . وهذا ما دفع الفيلسوف الألماني الوجودي المعاصر مارتن هيدجر إلى اعتبار الفلسفة هي الحكمة في المحبة وليس محبة الحكمة كما يُظَن بالفلسفة عادة.

وفي الوقت نفسه حدد هيرقليطس ممارسة هذه الفلسفة وهي التخلّص من الاغتراب، فقد أدرك البُعْد الجدلي في حركة النائمين. . فهم بالرغم من نومهم وأن عالمهم عالم خاص محصور في ذاتيتهم الضيقة وغرقهم في النزعة اللاعقلية إلّا أن فعل الاغتراب أو التشيؤ عندهم يؤثر في البشر المستيقظين محاولين سلبهم يقظتهم أو وجودهم الحقيقي. . يقول في الشذرة (٧٥): «إن أولئك النائمين إنما يعملون ويشاركون في أوجه النشاط الجارية في الكون». . ومن ثمَّ لا بدّ من قتالهم. . وعلى هذا تصبح الحرب ضرورة من ضرورات الفلسفة لأنها ضرورة من ضرورات الحياة للقضاء على هؤلاء النائمين. . يقول في الشذرة رقم (٥٣) «الحرب هي ملك الجميع وأب الجميع، ولقد أظهرت البعض على أنهم آلهة وأظهرت البعض الآخر على أنهم بشر، لقد جعلت من البعض عبيداً والبعض الآخر أحراراً». . إنها الحرب المحرِّرة لفرز السادة عن العبيد. . لكن السادة هنا ليس بمعنى التسيد بل بمعنى الباحثين عن الأرض المشتركة، أرض العقل، أرض الحب. والعبيد ليس بمعنى الخضوع، بل بمعنى المتشيئين النائمين الذين يريدون أن يشدّوا السادة إلى عالمهم السفلي. . وهؤلاء المتشيئون غارقون في النوم وفي عالمهم الخاص الذاتي: «إنهم لا يفهمون وإنْ كانوا يسمعون، إنهم أشبه بالصم. والمثل ينطبق عليهم: حاضرون ولكنهم غائبون» (الشذرة رقم ٣٤). إذنْ هذه الحرب

المشروعة ليست حرباً في ذاتها، ولكنها حرب من أجل الحب، فالحب هو المختفي خلف هذه الحرب.. إن الحب هو الفارس المقاتل.. إنه أداة التوحيد وهدف التوحيد في الوقت نفسه و «عندما تنصت - لا لي - بل للوجوس أو القانون أو العقل فإن من الحكمة الاتفاق على أن الأشياء جميعاً واحدة» (الشذرة رقم ٥٠).. ولقد أدرك هيرقليطس أن الحرب تفرز معادن الناس.. إن العالم مليء بالضرورة والقانون والعقل.. ولكن الإنسان يسقط إحساسه ومفاهيمه الخاصة فيفرز الأشياء وفق أهوائه.. تقول الشذرة رقم (١٠٢): «بالنسبة للآلهة كل الأشياء جميلة ورائعة وعادلة، ولكن الناس هم الذين يفترضون في بعض الأشياء أنها جائرة وفي بعضها الآخر أنها عادلة».

إن هيرقليطس واقف بالمرصاد ضد النائمين الذين يعتبرهم الدهماء فأفضل الناس يفضلون شيئاً واحداً على ما عداه فهم يفضلون المجد الخالد... وهو يشبِّه هؤلاء الدهماء بالحمير التي لا تستطيع أن تتبين جوهر الأشياء. وهؤلاء الدهماء تقوم مواقفهم على التعصب الذي هو أرض اللاعقل، أرض النائم وحده، فالتعصب هو الداء المقدس.

لقد وصِف الفيلسوف هيرقليطس بالغامض أو الملغز أو المظلم والسبب في هذا طريقة صياغاته لعباراته فقد أدرك منذ فجر الفلسفة أن وظيفتها إيقاظ النفوس.. وهذا الإيقاظ يتنافى مع العبارات التقريرية والآمرة التي تجعل النفوس تنفر وبدل أن تستيقظ تزيد من تمسكها بعالمها الجزئي، عالم النائمين.. إن الفلسفة يجب أن تُصَاغ في عبارات موحية حتى إذا تغلغلت في النفس وآمن بها الناس استيقظوا.. فكأن استيقاظهم نابع من داخلهم هم.. ولعلَّ هذا ما قد التقطه الفيلسوف الحديث فريدريك نيتشه عندما هدم القيم القديمة ودعا إلى قيم جديدة ثم قال لمخاطبه: وعليك ألاّ تتبعني.. لقد أدرك هيرقليطس إذن الوحدة العضوية بين الفلسفة وطريقة التعبير عنها.. فلمّا كانت الفلسفة طريقاً، يجب التعبير عنها بطريقة التوجيه نحو الطريق بحرية.. ولهذا لجأ إلى طريقة ملغزة موحية في التعبير.. ولقد أدرك هو بنفسه طبيعة صياغاته.. يقول في الشذرة (٩٣): «إن الرب الذي

تقوم معجزته في معبد دلفي لا يفصح ولا يخفي ولكنه يلمِّح». ويوضح زيلر في كتابه «خطوط عريضة لتاريخ الفلسفة اليونانية»: «يشتغل عقله بالحَدْس أكثر مما يشتغل بالمفاهيم وهو يتوجه إلى المركَّب أكثر مما يتوجه إلى تحليل ما هو مطروح» (٤٩١٥: ٤٥). إن هذه الطريقة تدفع الإنسان إلى أن يتفكَّر وإلى أن يتيقظ وقد اشتكى أفلوطن قائلاً: «يبدو أنه يتكلم وهو يبتسم غير عابىء بأن يجعل معناه جلياً، ربما لأنه يرى أنه يجب أن نبحث في أنفسنا كما بحث هو في نفسه بنجاح» (٣٣٩٥: ٤١١).. إن التفكير يبدأ من لحظة إعتام.. وهو يريد الخروج من هذه الحالة إلى حالة الإنارة بعد إعمال التفكير. لكنه لا يريد أن ينسى اللحظة الفاعلة في التفكير، وهي أنها لحظة «جدلية» ليس فيها إعتام كامل ولا وضوح كامل.. ولهذا يقول هيدجر عنه: «يوصف هيرقليطس بأنه المظلم وسوف يحتفظ في المستقبل بهذا الإسم غير أنه هو المظلم لأنه ـ بالسؤال ـ يتجه بفكره نحو الإنارة» (٢٣٦٥: ٤١٢).

في الإعتام إذنْ يبدأ التفكير. في الإعتام ليست الأشياء واضحة.. لا يدرك الناس طريقهم الحقيقي.. لا يعرفون وسائلهم في المعرفة تماماً ولا يعرفون تماماً كيف يسيطرون على مصائرهم.. إنهم يظنون أن الحواس شهود سليمة للمعرفة وهيرقليطس لا يعترض على هذا.. لكن الحواس وسيلة ممتازة للمعرفة لِمَنْ لهم نفوس مستيقظة مشتركة معملين في معرفتهم الحسية العقل. لكن هذه الحواس بالنسبة للنائمين المتشيئين شهود سيئة.. فالعيون والآذان شهود سيئة عند الناس الذين لهم نفوس بربرية.. وحتى يضمن هيرقليطس ألّا تكون العيون والآذان شهوداً سيئة للمعرفة يلجأ إلى العقل. والعقل عنده ليس مجرد مَلَكَة من ملكات المعرفة، بل هو أيضاً الشيء الموحِّد. إنه هو نفسه الحب.. فالعقل هو روح التوحيد: «مَلَكَة التفكير مشتركة بين الجميع» (الشذرة رقم ١١٣). إن العقل هو الباحث عن الأرض المشتركة: «إذا تكلمنا بالعقل فيجب أن نؤسس قوتنا على ما هو مشترك بين الجميع بمثل ما تؤسس المدينة قوتها على القانون (العقل)» (الشذرة رقم ١١٤). وهيرقليطس على وعي تام بما في الإنسان من جانب عقلي لكنه يتجه

إلى العقل الذي في العالم ومن ثمَّ يدرك الطبيعة الجدلية للتفكير العقلي: الصراع مع اللاّعقل في النفس والواقع على السواء.

غير أن هذا اللوجوس Logos أو العقل الـذي هو روح التـوحيد والوحدة، روح الحب المجمع للبشر لا يرتبط به كل الناس. وبسبب عدم الارتباط هذا يتشيأ الإنسان وتصبح كل الأشياء غريبة: «إن اللوجوس أو العقل الكلي بالرغم من أن الناس يرتبطون به أيما ارتباط إلاّ أنهم منفصلون عنه ولهذا فإن تلك الأشياء التي يواجهونها يومياً تبدو لهم غريبة» (الشذرة رقم ٧٢).. العقلاني إذن هو انسحاب من الجزئي والعَرَضي واندماج فيما هو كلي وضروري وهذه هي الأرض المشتركة بين الأيقاظ.. ويشرح الفيلسوف الالماني فريدريك هيجل هذا عندما يقول في الجزء الأول من «محاضرات حول تاريخ الفلسفة»: «إن العقلاني الحقيقي الذي أعرفه هو في الحقيقة انسحاب موضوعي، انسحاب مما هو موجود حسياً وجزئياً ومحدوداً، ولكن ما يعرفه العقل داخل ذاته هو الضرورة، أو كلية الوجود، إنه قانون الفكر كما أنه قانون العالم» (٣٤٤٥: ٢٩٦). أجل.. إن اللوجوس هو قانون الفكر كما أنه قانون العالم، إنه مَلَكَة المعرفة والتفكير وهو الكاشف عن الضرورة في العالم، وهو الرابطة الموحِّدة لأن الضرورة ليست إلاّ ترابط الأشياء وفق علل وأسباب وهذا هو التفلسف: «إن ما يتصف بالحكمة أمر واحد: هو تفهم الغرض الذي يوجه الأشياء جميعاً ويسيِّرها من خلال الأشياء جميعاً» (الشذرة رقم ٤١).

ويقول هيرقليطس إن كل بهيمة تُساق للمرعى بالضرب، لكن الإنسان عند هيرقليطس يُساق بالعقل: ولقد التقط خيط العقلي أو اللوجوس من تراث القرن الخامس قبل الميلاد وما قبله.. ولقد كان لهذا اللوجوس أحد عشر معنى كما أحصاها جوثري في كتابه «الفلسفة اليونانية» وهذه المعاني هي:

١ ـ اللوجوس هو أي شيء يُقال، قصة أو حكاية مروية سواء كانت خيالية أم تاريخاً حقيقياً. وهو أيضاً شرح لأي موقف أو أيّة ظروف، إنه الحديث أو المناقشة بصفة عامة.

٢ ـ اللوجوس يعني القيمة أو التقدير. وكان الكاتب المسرحي اليوناني سوفوكلس يقول إن حماية الله يُقال إنها بلا قيمة Logos مسألة ليست بالأمر الهين. ويُقال أيضاً وضع الإنسان في اللوجوس يعني تكريمه. وكان الكاتب المسرحي اليوناني أسخيلوس يقول إن رب الأرباب زيوس ليس لديه تقدير Logos للموتى.

٣ ـ اللوجوس كان يعني أيضاً الحديث إلى النفس في تعارض مع ما هو حي، لأن الحديث مع النفس خروج عمّا هو مباشر.

٤ ـ كان اللوجوس يعني أيضاً العلّة أو السبب أو الحجة وكان سوفوكلس يقول: لماذا أرسلت وبعثت بالأنخاب الإلهية، لأي سبب Logos؟ ويقول سوفوكلـس أيضاً: لماذا تظل صامتاً دوماً سبب Logos؟

٥ ـ كان اللوجوس يعني حقيقة المسألة وكان الملوك الحقيقيون يوصفون بأنهم ملوك باللوجوس الحق.

٦ ـ كان يعني أيضاً المعيار أو المقياس أو المرتبة. وكان يُقال: لم يصل كثير منهم إلى مرتبة Logos الشيخوخة.

٧ ـ كان يعني كذلك المطابقة والعلاقة والتناسب، وكان يُقال: إنني مثل الذهب أختبر بالرصاص وهناك نسبة Logos من التفرق فيّ. وكانت الكلمة تعني أيضاً المبدأ العام أو القانون أو القاعدة أو مَلَكَة التفكير. وهذا ما أخذ به هيرقليطس بصفة خاصة.

٨ ـ كانت الكلمة تعني المبدأ العام، وجاءت بهذا المعنى أيضاً فيما بعد في القرن الرابع قبل الميلاد. وقد تحدث أرسطو في كتابه «فلسفة الأخلاق» عن اللوجوس أو المبدأ الحق.

٩ ـ بمعنى كلمة العقل وخاصة عند كُتّاب القرن الرابع قبل الميلاد. فيُقال إن الإنسان يتميز عن الحيوان بامتلاكه للوجوس.

١٠ ـ كانت الكلمة تعني كذلك التعريف أو الصياغة التعبيرية عن الطبيعة الجوهرية للأشياء.

١١ ـ كانت أكثر من ذلك كلمة شائعة في اللغة اليونانية دون أن تكون مصطلحاً. يقول هيرودوت. «إن بقية اليونانيين قرروا باللوجوس المشترك أو الحسّ المشترك أن يرسلو..» إلخ.

لقد ورث هيرقليطس هذا التراث عن هذا المصطلح الفريد وبثَّ فيه من روحه الملغزة المتجهة من الظلمة إلى النور، واعتبر اللوجوس روح التوحيد أو التجميع الذي هو ليس إلاّ الحب. وهذا العقل الكلي الموحد لا يختفي أبداً ولهذا يتعجب من أولئك الذين يبتعدون عمّا لا يغيب.. يقول في الشذرة رقم (١٦) «كيف يمكن أن يتسنّى لأي إنسان أن يتخفّى عن ذلك الذي لا يغرب أبداً؟» ولهذا يجب القتال دفاعاً عن ذلك الذي لا يغيب أبداً: «يجب أن يقاتل الناس من أجل اللوجوس أو القانون العقلي كما لو كانوا يقاتلون دفاعاً عن أسوار مدينتهم» (الشذرة رقم ٤٤).

إن هيرقليطس يرى أن الدفاع عن الوطن واجب، لكن الدفاع عن العقل أكثر وجوباً لأن الوطن جزئي على حين أن العقل أوسع من رقعة الوطن فهو الأرض المشتركة بين النفوس المتيقظة إنه أرض التوحيد، وأرض المحبة.

إن الشيء البارز في تصور هيرقليطس للعقل أو اللوجوس أنه ليس شيئاً متكوناً منذ البداية بل هو في دور التكوين وسيكتمل مع تمام البشرية إذا استعرنا تعبير الفيلسوف العربي ابن رشد.. إنه «فعل»، فعل اكتساب العقل. إنه عقل سيال متدفق حركي مليء بالجدل، ومن خلال هذا السيال تتبدّى ضرورته، لأنها ضرورته باعتباره مَلَكَة ونظاماً يحكم العالم. وهو في هذا السيال المتدفق الحركي في حالة حرب.. إنه عقل مقاتل.. يقاتل بحثاً عن حقيقته وحقيقة العالم.. يقاتل من أجل تأسيس كيانه وكيان العالم.. ومن هنا فإن الحرب هي سيد الأشياء جميعاً.. والحرب تعني وجود الأضداد،

لأنه لا حرب إلاّ وهي صراع ضد طرف من أجل طرف آخر. . لكن هذه الحرب محكومة بنفسها، محكومة باللوجوس نفسه وإلاّ سيطر أحد الأطراف وانتهى الصراع للأبد. . «إن هذه الحرب الدائمة غير مسموح لها أن تستمر بلا تنظيم، فلو كان الأمر هكذا فيمكن في يوم ما أن تكفّ. إن الكون قد وجد للأبد وسوف يستمر في الوجود، ولا يمكن ضمان هذا إذا كانت هناك إمكانية لأحد الأضداد أن يكتسب ميزة دائمة. وفي الحقيقة لن يوجد تناقض إذا كان النقيض سوف يختفي» (٣٣٩٥. ٤٨٧).

غير أن هذه الحرب هدفها في النهاية الوصول إلى الحب أو ما يسميه هيرقليطس التناغم. يقول في الشذرة رقم (٨): «إن ذلك الذي في تعارض لهو الشيء المتماسك، ومن الأشياء التي تختلف يظهر أجمل تناغم». . لكن هذا التناغم هو نتيجة توتر أو إنْ شئنا تعبيراً معاصراً يعبر عمّا يـريده هيرقليطس لقلنا إنه التناغم المتوتر المليء بالحركة والحيوية والحياة. يقول في الشذرة رقم (٥١): «إنهم لا يفهمون كيف أن ما يختلف مع نفسه هو في اتفاق: فالتناغم قائم في التوتر بين الأضداد مثل التناغم القائم بين القوس والقيثارة». وعظمة اللوجوس تقوم في البحث والتقصّي والنزاع بحثاً عن التناغم. وهذا التناغم ليس شيئاً سهلاً وليس شيئاً ظاهراً، ولكنه خفيٌ دفين، بل إن هناك تناغمين: باطنياً وسطحياً، يقول في الشذرة (٥٤): «التناغم الخفي أقوى من التناغم المرئي» وهيرقليطس يدرك تماماً جدل هذا التناغم. إنه التناغم المترتب على الحركة والصراع، لا السكينة والهدوء. . ولهذا يمكن اعتباره هو بحق ـ وليس زينون الأيلي ـ مؤسس علم الجدل. . لقد أدرك تماماً أن التناغم هو نتيجة النزاع. . يقول في الشذرة رقم (٨٠): «يجب على الإنسان أن يعرف أن الحرب عامة والشريعة هي النزاع وكل شيء يبرز إلى حيِّز الوجود عن طريق النزاع والضرورة». . إذنْ التناغم أو الحب هو حب مسلح يقاتل من أجل أن يتأسس. ويوضح جوثري هذا المعنى قائلاً عن هيرقليطس: «الرجل الذي قال (في التغير تكون الراحة) لن يتردد في القول (في الحرب يكون السلام)» (٣٣٩٥: ٤٤٤).

في الحرب يكون السلام.. هذه هي القضية المحورية في فلسفة هيرقليطس. التغير إذن ليس حالة تعاقب بل حالة تآن.. حالة صراع.. ووراء هذا الصراع يعمل السلام.. يعمل التناغم.. يعمل الحب.. والذين يستخلصون الحب من وسط النزاع هم الأيقاظ وذلك لأنه «لا يجب أن نتصرف ولا يجب أن نتكلم مثل النائمين» (الشذرة ٧٣).. والمستيقظون من أجل أن يوجدوا الأرض المشتركة يجب أن يقاتلوا من أجلها.. يجب أن ينتزعوها من النائمين المتشيئين. ولهذا فإن حرب هيرقليطس هي حرب اغتراب.. لقد احتجَّ هيرقليطس على اليونانيين الذي يسجدون لعمل أيديهم.. يقول في إحدى الشذرات المشكوك في نسبتها إليه وهي الشذرة (١٢٨): «إنهم (اليونانيون) يسجدون لآلهة لا تسمعهم وكأنها تسمعهم وهي لا تمنحهم شيئاً بمثل ما لا تستطيع أن تطلب».. إنه يريد لليوناني، وللإنسان بالتالي، أن يخرج من حالة الاستسلام لما هو سائد.. وهناك قصة تُروى عن هيرقليطس تقول «إنه عندما وجِد وهو يلعب بالنرد مع الأطفال وسأله المواطنون عن السبب ردَّ قائلاً: لماذا أنتم مندهشون أيها الفضوليون للاشيء؟ أليس هذا أفضل من التلاعب بالسياسة معكم؟» (٣٣٩٥: ٤٠٩). إنه يريد أن يلعب مع الحقيقة، والحقيقة أن التناغم قادم وسيادة الإنسان مؤكدة على كل ما هو موجود فهو أجمل المخلوقات.. يقول في الشذرة (٨٢): «إن أجمل قرد، قبيح إذا ما قورن بالإنسان» لكن نضال الإنسان من أجل تأسيس جماله نضال شاق، وهو نضال يبدأ ضد الدوافع الحسية المباشرة: «صعبٌ النضال ضد دوافع الإنسان، فمهما يكن ما ترغب فيه إنما تشتريه على حساب النفس» (الشذرة رقم ٨٥). وتزداد صعوبة الإنسان في مواجهة الطبيعة وذلك لأن «الطبيعة تحب أن تتخفى» (الشذرة رقم ١٢٣) إنها تتخفى عن الإنسان.. فما الذي تخفيه؟ وكيف يستطيع الإنسان أن يصل إلى ما تخفيه؟

يذكر الفيلسوف الوجودي هيدجر نقلاً عن كليمنس السكندري (من حوالي ١٥٠ إلى ٢١٥ بعد الميلاد): هذه العبارة في كتابه (المربي) لتأييد إحدى أفكاره اللاهوتية والتربوية فهو يستشهد بشذرة هيرقليطس المتسائلة: «كيف

يتسنّى للإنسان أن يحجب نفسه عمّا لا يغيب أبداً؟» ويقدم لها قائلاً: «ربما استطاع إنسان أن يتخفى بعيداً عن النور المدرك المحسوس، ولكن من المستحيل عليه أن يفعل ذلك مع النور الروحي كما يقول هيرقليطس» (٢٣٦٥ : ٣٦٧ ـ ٣٦٨). ويعلّق هيدجر على هذه المسألة قائلاً: «الخفاء أو التحجب هو الذي يحدد هنا أسلوب كينونة الإنسان (أو حضوره) بين الناس» (٢٣٦٥ : ٢٧٣).. إن الحقيقة خفية، والإنسان هو عامل يزيد في عملية التخفي، لكنه في الوقت نفسه عامل على إزاحة الحجاب حتى تظهر الحقيقة.. فكأن جوهر الإنسان ممارسة الحرية.. إنه انفتاح لكشف التحجب.. إن جوهره هو اللاّتحجب.. إن «الانفتاح بما هو كذلك يميل دائماً إلى الانغلاق، وفي هذا الانغلاق يبقى ذاك الانفتاح مطوياً» (٢٣٦٥ : ٢٩١). ويحاول هيدجر أن يبين جدل كشف الحقيقة عند هيرقليطس.. إن الإنسان بفعله ينير الوجود ويخرجه من الظلام والتحجب: «إن الآلهة والبشر لا يستضيئون فحسب بنور (معين) مهما يكن هذا النور آتياً من أعلى بحيث لا يمكنهم أبداً أن يتخفّوا منه ويلوذوا بالظلام. إن النور يغمر ماهيتهم، إنهم مستنيرون، أي مجمعون في حدوث الإنارة ولهذا السبب فهم لا يحجبون أبداً بل يكشفون، على أن نفهم هذا الكشف بمعنى آخر. فكما ينتمي البعيدون إلى البعد، كذلك يعهد بالمتكشفين ـ بالمعنى الذي ينبغي الآن أن نفهم به الكشف ـ إلى الإنارة التي تؤمنهم وتحفظهم وترعاهم. إنهم بحسب ما تقضي به ماهياتهم موضوعون في خفاء السر وتحجبه بسبب ارتباطهم باللوجوس في التجانس المؤلف بينهم أو (الهومولوجين)» (٢٣٦٥ : ٥٠٦ ـ ٤٠٧).

إن جوهر الإنسان إذنْ عند هيرقليطس هو الحرية.. إنه فعل التفتح، الخروج من تخفي الطبيعة.. وفعل الخروج هذا هو الموصل إلى التناغم وإلى الحب وإلى روح التجميع وإلى الإيقاظ وإلى النفوس التي طرحت عن كاهلها رقادها وسباتها واستيقظت لتؤسس الأرض المشتركة.

وهذه النفوس إنما توجد في كون كان ويكون وسيكون إلى الأبد شعلة حيّة.. لقد رفض هيرقليطس أيّة بنية مادية أولى قال بها الفلاسفة السابقون

عليه ورأى أن الكون كله بطبيعته شعلة متحركة ورَمَزَ لهذه الشعلة بالنار. .
وهذه النار مادية وغير مادية معاً. . إنها نار ذات طبيعة جدلية. . إنها نار التدفق والسيال. . إنها نار الأضداد والصراع وهي في الوقت نفسه النار التي تبقي على وحدة الأضداد والتي تبقي الصراع حياً. . إنها نار التناغم. . إنها النار التي تجعل الحرب أباً ومَلِكاً للجميع. . إنها النار التي تستخلص التناغم والحب من خلال الصراع. . إنها النار الهادية للإنسان بنورها لشقِّ طريقه نحو إيقاظ النفوس وصولاً بها إلى الأرض المشتركة، وتخلصاً من الذين استسلموا للهجعة. . يقول هيدجر: «وهيرقليطس حين تكلم عن النار يفكر قبل كل شيء في الإنارة المادية التي تقدم المقياس وتسترده» (٢٣٦٥ : ٤٩٠).
إن هذه النار هي سيال متدفق، إنها التغير، والتغير هو الزمن الدفاق، ولهذا يقول هيجل عن نار هيرقليطس: «النار هي الزمن المادي، هي القلق المطلق، هي التفكك المطلق للوجود، انتقال الآخر أو نفسه أيضاً» (٣٤٤٥: الجزء الأول: ٢٨٧). وهذه النار هي أيضاً الحب أو التناغم. . يقول هويلرايت في دراسته عن هيرقليطس: «إن النار تفرِّق ثم تجمِّع ثانية، إنها تتقدم وتتقهقر» (١٤٩٧ : ٤٩)، ويضيف نفس المفكر قائلاً: «إن النار الهيرقليطية. . نار طبيعة وأكثر من طبيعية في وقت واحد، إن لها مظهراً نفسياً (كالإسراع الداخلي والاشتعال) ولها مظهر ميتافيزيقي (كالعملية الخالدة) ولها مظهر أخلاقي، (١٤٩٧: ١٠٥). ثم يوضح طابعها المادي والفلسفي معاً: «النار التي يتحدث عنها ليست طبيعية ولا ميتافيزيقية، إنها طبيعية وميتافيزيقية معاً لأنها اللهب المغذي وهي محسوسة للرؤية الخارجية. إنها نمو داخلي وهي في الوقت نفسه الحقيقة الكلية للتغير المستمر» (١٤٩٧: ١٢١).

وهذه النار هي أيضاً اللوجوس. . إنها العقل المتحرك. . وهي أيضاً القانون الحافظ للنفس الإنسانية. . يقول جوثري: «ليس من الخطأ التوحيد بين النار واللوجوس ونتفق مع الرواقيين وهيبوليتوس عندما يقولون إن نار هيرقليطس: عقلانية ومسؤولة عن تدبير العالم كله» (٣٣٩٥: ٤٣٢). إن هذه النار، نار العقل هي كذلك الضرورة الحاكمة للجميع. . إن هذه النار

هي الزمن المتبقي من التغير. لقد قال هيرقليطس: «لا يمكن للإنسان أن ينزل في النهر الواحد مرتين (فيستحيل أن يلمس المادة الفانية نفسها مرتين ولكن من خلال سرعة التغير) تتبعثر المياه وتتجمع ثانية (أو بالأحرى لا تتجمع حتى «ثانية» أو «فيما بعد»، لكن التجمع والانفصال متزامنـان) وتتقارب وتنفصل» (الشذرة رقم ٩١). إنها النار التي هي الزمن الممتلىء و «إن هيرقليطس يفهم العملية التجريدية على أنها الزمن. وينقل سكستوس نقلاً عنه: (الزمن هو الوجود المتجسِّد الأول)» (٣٤٤٥: الجزء الأول: ص ٢٨٦).
إن هذه النار هي كل هذا، إنها النار التي يتحدث عنهـا بلغة المجـاز والإيحاء. لغة الفلاسفة الحقيقيين. إنها نار الحرية، نار التفتح، نار الإضاء والاستضاء. نار التكشف ونزع برقع الحجاب. إنها نار الطريق «وقد اكتشف كارل رينهارت إحدى شذرات هيرقليطس في كتابات هيبوليتوس وأثبت صحة نسبتها إليه وبينً أن النار (توربير) عنده تدل في نفس الوقت على معنى المتفكر (تورفرونيمون) الذي يهدي كل إنسان إلى الطريق ويدل كل شيء على مكانه. هذه النار المفكرة الهادية تجمِّع كل شيء وتؤمن ماهيته وتحفظها عليه.

وهذه النار المتفكرة هي التجميع الذي يهيِّىء تحقق الماهية ويقدمه. «إن النار (بير) هي التجميع (اللوجوس) وتفكيرها هو القلب أي هو رحابة العالم التي (تنشر) الضوء والأمن» (٢٣٦٥: ٤٠٠ - ٤٠١) أي أن النار عند هيرقليطس تنشر الحب. إنها الحب المسلح المناضل من أجل أن يتكشف وسط عتامة الأشياء وجه الإنسان.

إن هذه النار هي التغير وما وراء التغير. إنها مصدر التجدد. يقول بيرنت في كتابه «الفلسفة اليونانية»: «ليس حقاً فحسب أننا لا نستطيع أن ننزل النهر الواحد مرتين، بل أيضاً اننا لسنا نفس الشخص في لحظتين متتاليتين» (٢٨١٦: ٦٣). لكن وراء التغير تبقى النار. ما وراء التغير هو التجدد. وهذا التجدد هو نفسه النار. يقول في الشذرة (٩٠): «هناك

تبادل، فكل الأشياء للنار والنار لكل شيء، مثلما يتم تبادل السلع بالذهب والذهب بالسلع، إن النار الهيرقليطية هي نفسها حركة الوجود والعدم لهذا يقول هيجل: «إننا نقول ـ بدلاً من استخدام تعبير هيرقليطس ـ إن المطلق هو وحدة الوجود واللاوجود» (٣٤٤٥: ٢٨٢).

وهذا التغير هو نفسه الحرب الأبدية.. حرب الأضداد.. ولقد وصف هويلرايت هذا التغير فقال: «إن التغير بالنسبة له معركة بالضربة القاضية بين ضدين وجوديين وليس هناك حكم» (١٤٩٧: ٤٦). وهذه الحرب من أجل ألّا يحيا الإنسان كالبهيمة والتخلّي عن اللذات المباشرة. تقول الشذرة رقم (٤): «لو كانت السعادة قائمة في المباهج الجسدية لكان يمكننا أن نعد الثيران سعيدة عندما تجد علفاً تقتات به» ولهذا يطالبنا أن نطفىء نار الإفراط لأنها أكثر ضراوة من النار الحقيقية.. وعلى هذا يجب الخروج من المباهج المباشرة الفردية إلى البهجة المشتركة، بهجة التناغم والمحبة و«الذين يحبون الحكمة أن يكونوا متسائلين عن أشياء عديدة في الحقيقة» (الشذرة رقم ٣٥). وهذا الغوص هو عينه الفلسفة فليست الحكمة زيادة وتراكماً بالمعلومات. كما أن المعرفة داخل الذات ليست شيئاً ذاتياً بل هي إدراك لحدود الإنسان.. يقول هايلاند في كتابه «أصول الفلسفة»، وهو يعلّق على بعض شذرات هيرقليطس: «المعرفة الذاتية تعني على الأقل معرفة حدود الإنسان» (٣٥٣٨ ١٤٧). إن هيرقليطس مارس فعل التفلسف: «لقد نقّبت في نفسي» (الشذرة رقم ١٠١). فماذا وجد؟ وجد اللوجوس، وجد رسالة الفلاسفة: إيقاظ النفوس وتسليحهم بهذه اليقظة.. ولقد غاص في نفسه وفي نفوس الآخرين لكنه لم يصل إلى نهاية النفس لأنها طريق شأن الفلسفة.. وكل ما فعله أنه أومأ إلى الطريق.. ثبت إشارة مرور.. أوحى ورمز.. نوّه بالحقيقة باعتبار الحقيقة هي التصرّف وفق طبائع الأشياء.. ولقد أدرك إدراكاً عميقاً لا تناهي اللوجوس فقال في شذرته رقم (٤٥): «أنت لن تتمكن من أن تجد أغوار النفس مهما قطعت جميع الدروب خلال سعيك. فلوجوس النفس أو قانونها العام عميق للغاية». والحقيقة يجب أن يتوقعها الإنسان «إذا لم يكن

لدى الإنسان الأمل فلن يجد ما كان يتوقعه، فلا يوجد مسلك آخر يفضي إليه ولا درب» (الشذرة رقم ١٨).

لقد سيطرت فكرة الواحد أو المبدأ الموحِّد على كل تفكير هيرقليطس: من كل شيء يصدر الواحد ومن الواحد يصدر كل شيء.. وهذا الواحد نار خالدة، عالم مشتعل إلى الأبد منذ الأزل.. إن هذا الكون كان ويكون وسيكون شعلة حية للأبد.. وهو يفكر في النار السيالة لأنه على حد تعبير هيجل: «لا يعود قادراً - مثل طاليس - على اعتبار الماء أو الهواء أو أي شيء مماثل هو المبدأ المطلق - إنه لا يعود قادراً على هذا على شكل عنصر أولي منه تنطلق بقية الأشياء لأنه يفكر في الوجود على أنه في هوية مع اللاوجود أو الفكرة اللامتناهية، ومن ثمَّ فإن المبدأ المطلق الموجود لا يمكن أن يكون شيئاً فعلياً محدداً مثل الماء بل يجب أن يكون الماء في حالة تغير أو العملية وحدُّها» (٣٤٤٥: الجزء الأول: ٢٧٦). وهذه العملية نار أبدية، حرية متحركة: «العالم نار دائمة، وانفتاح وانبثاق دائم بكل ما لكلمة (الفيزيس) [أو الطبيعة أو التحجب كما يفسِّرها هيدجر] من معنى وإذا كنا نتحدث هنا عن حريق أبدي يلتهم العالم فلا يجوز لنا أن نذهب إلى تصور عالم قائم بذاته ثم نتصور أن هناك حريقاً شبَّ فيه وأتى عليه. فالواقع أن العالم و (النار) و (الدائم الحياة) و (والذي لا يغيب أبداً) تعبر جميعاً عن نفس الشيء» (٢٣٦٥: ٤٠٠) وهذه النار المنيرة هي نار الحرب من أجل الحب. ولقد لام هيرقليطس الشاعر هوميروس على إمكان تصوره لإنهاء الصراع فلو حدث ذلك لانتهى كل شيء على ظهر الوجود.. ولقد اختار هيرقليطس أن يخوض الحرب التي دعا إليها، وهذا ما جعله ينأى عن سلوك الدهماء النائمين مستهدياً في موقفه بقوله هو نفسه إن سلوك الإنسان هو إلهه الذي يحرسه.. واستهدف بحربه أن يربي النفوس فالتربية - كما يقول - هي شمس أخرى بالنسبة للذين يتعلمون. وهو في حربه يستهدي باللوجوس الذي يكشف عن الضرورة وبهذا يجعل من التفلسف فعلاً عقلياً لا فعلاً حَدْسياً فقد كان يرفض التخمينات في عظائم الأمور. وبهذا الفعل العقلي رفض وظيفة الإشراف

الكهني التي عرضت عليه وأخذ يحمل على الديموقراطية لأنه تصورها هي قانون الدهماء وأوساط الناس. وجاءت حربه من أجل الحب. وجاء هو إلى العالم كالمسيح يحمل سيفاً لا سلاماً وأراد أن يقلب الموائد على المتاجرين في معبد الرب المتشيئين النائمين. وعبَّر عن تجربته بالإشارات الإلهية وهو «كمفكر لم يعطنا إلاّ أن نفكر» (٣٤٥٩. ٧٢).

نصوص شذرات هيرقليطس

خُلِق الإنسان جميلاً...

٨٢ ـ إن أجملَ قردٍ قبيحٌ إذا ما قورِن بالإنسان.

تُعدّ هذه الشذرة هي حجر الزاوية في كل فلسفة هيرقليطس، فعلى أساس تحديده للإنسان ومكانته يحدد هو فلسفته ورسالته. ويكشف هيرقليطس هنا عن إيمانه العميق بالإنسان وأنه كائن جمالي في الأساس فالإنسان ليس مجرد حيوان بل هو إنسان وإنسانيته ـ كما ستكشف شذراته عن مفهوم العقل ـ تكمن في تمتعه بالعقل الكلي الذي لا ينحصر في ذاتيته الجزئية. وتفضح هذه الشذرة خطأ الدارسين الأوروبيين الذين اعتبروه متشائماً فهو يظهر تمجيده للإنسان. وتظهر الشذرة خطأ بيرنت في كتابه «الفلسفة اليونانية» عندما يقول: «ليس هناك شك في أن هيرقليطس كان أرستقراطياً صارماً ولديه احتقار شديد لجماهير البشر» (ص ٥٨).

٨٣ ـ إن أحكمَ الرجال يبدُو قرداً بالمقارنة مع الآلهة، في الحكمة والجمال على السواء وكل شيء آخر.

غير أن الإنسان بفضل جماليته وحكمته لا يجب أن يغترّ. إن الإنسان كما سيقول الفيلسوف الألماني فريدريك نيتشه (١٨٤٤ ـ ١٩٠٠) في كتابه «هكذا تكلم زرادشت» وتر مشدود بين الدودة والإنسان الأعلى، وتر مشدود فوق هاوية. إن الإنسان أجمل من القرد لأنه بحكم جماليته يتخلص من الدودة أو الحياة المنحطّة ويسعى إلى أن يكون كالآلهة متصفاً بالكمال، فالنقص إذنْ

جزء من نسيجه البشري وعليه أن يثبت بفعله في كل لحظة أنه جدير بهذه الإنسانية ومن ثمَّ فهو في لحظة الآنية قرد إذا ما قورن بالآلهة.

٧٩ ـ يُعدّ الإنسانُ طفلاً إذا قورِن بالألوهية بمثل ما يُعدّ الطفل طفلاً إذا ما قورِن بالإنسان.

وتكمن قيمة الإنسان في إدراك حدوده وهو ما سوف يعرض له هيرقليطس فيما بعد بإدراك النفس لنفسها؛ وإدراك النفس لنفسها هو عدم تجاوز الحدود. وعلى هذا، فإذا كان الإنسان جميلاً بالنسبة للحيوان لأنه يجمِّل حياته بالعقل فإنه بالرغم من نزوعه نحو العقل الكلي محدود في محاولته لأنه ليس هو العقل الكلي نفسه ولهذا فهو بالنسبة للآلهة ليس إلاّ مجرد طفل. أمّا الآلهة نفسها فهي العقل الكلي نفسه.

٧٨ ـ الطبيعة الإنسانية ليست لديها قدرة على الفهم الكامل، لكن الطبيعة الإلهية هي التي لديها هذه القدرة.

وعلى هذا يجب أن يدرك الإنسان أنه ليس هو العقل الكلي نفسه ـ محدود في معرفته وليست لديه القدرة على الفهم الكامل فهذه القدرة تختص بها الآلهة فحسب وذلك من جهتين: بحكم أنها تتصف بالكمال وبحكم أنها العقل الكلي نفسه في كيانه التام. ولهذا يجب على الإنسان أن يحدّ من غروره.

وخُلِق الإنسان مغترباً . . .

١٠٢ ـ بالنسبة للآلهة كل الأشياء جميلة ورائعة وعادلة، ولكن الناس هم الذين يفترضون في بعض الأشياء أنها جائرة وفي بعضها الآخر أنها عادلة.

والإنسان له طبيعة مزدوجة. وهذه الطبيعة المزدوجة يمكنها أن تلوي عنق الحقائق والأشياء ويمكنها أن تعلن الحقائق برغم ما يصيبها من مشاق. إن الإنسان هو الذي يسقط مشاعره ورغباته وأهواءه وتفكيره على الواقع. إن الإنسان ليس مجرد وجود في ذاته ـ كما يقول الفيلسوف الفرنسي الوجودي المعاصر جان بول سارتر (١٩٠٥ ـ ١٩٨٠) ـ وجود جامد ساكن شأن المناضد ولكنه وجود لذاته متحرك يدخل الوعي على العالم ومن ثمَّ فهو يسقط الذاتية على الحقائق ويضفي الطابع الأخلاقي على الأشياء.

٨٩ ـ بالنسبة للأيقاظ هناك كون منظم واحد مشترك (بالنسبة للجميع) على حين أن كل إنسان في النوم يشيح (عن هذا العالم) إلى عالم خاص به.

إن نسيج الإنسان هو ازدواج الدلالة Ambiguity. إنه مغترب، والاغتراب Alienation هو نسيجه. والاغتراب باعتباره حالة جدلية يصاحب لدى الإنسان بفقدان النفس والتنازل عنها. والفقدان في اتجاهين. إمّا أن تفقد النفس ذاتها الأصيلة وتتشتت في الموجود الجزئي وتصبح كالمناضد ويطرأ عليها التشيّؤ Reification وإمّا أن تفقد النفس ذاتها الزائفة المتجزئة وتكتسب

ذاتاً أصيلة متكاملة وتصبح في مصاف الآلهة. في الحالة الأولى يصبح الإنسان سجين عالمه الجزئي ويحيا وحده ويدخل عالم النيام وفي الحالة الثانية يعيش تجربة مشتركة مع الجميع ويدخل عالم الأيقاظ الكاملين. لقد تحدث هيرقليطس عن ظاهرة الاغتراب كظاهرة استشعرها بمثل ما فعل الفيلسوف الشاعر الألماني فريدريك شيلر (١٧٥٩ - ١٨٠٥) وذلك قبل أن يأتي الفيلسوف الألماني فريدريك هيجل (١٧٧٠ - ١٨٣١) ليصكّ مصطلح الاغتراب ويقيم مذهباً متكاملاً حول هذه الظاهرة التي يراها مزدوجة.

٢١ - إن كلّ ما نراه بعدما نستيقظ هو الموت، وكل ما نراه خلال الرقاد هو النوم.

إن الأيقاظ وحدهم هم الذين يخرجون من سباتهم وتشيّوئهم ويوجهون اغترابهم إلى التكامل. إنهم يكتشفون أنهم جزئيون ومن ثمَّ يجب أن يميتوا عالمهم الجزئي ويقهروا انفصالهم عن الآخرين ويؤسسوا تواصلهم وهذا هو حقيقة قهرهم لاغترابهم. أمّا النيام فهم مسترخون مستريحون إلى عالمهم الخاص الجزئي الذي يميتهم ويميت غيرهم وهذا العالم لا يكون هو العالم الحقيقي لأنه عالم الأحلام الذي يتبدّى في الرقاد.

١١٩ - طابع الإنسان هو قدره.

وعلى الإنسان أن يختار. إنه مزدوج الدلالة. يستطيع باختياره أن يضفي القبح والضلال على العالم كما يستطيع أيضاً باختياره أن يضفي الجمال والحق على هذا العالم. ويصبح اختياره الذي يعطيه طابعه هو قدره ولكن هذا القدر يتم باختياره بسبب اغترابه الجدلي وما فيه من ازدواجية. إنه باختياره إمّا أنه يدخل عالم الأشياء ومن ثمَّ يتشيّأ وإمّا أن يدخل عالم الآلهة ومن ثمَّ يتكامل والأمر متوقف على الإنسان: في أي اتجاه يودّ أن يوجّه اغترابه؟

٧ - لوكانت الأشياء تتحول إلى دخان لأصبحت الأنف هي عضو التمييز بينها.

إن الإنسان يشكِّل العالم بقدر ما أن العالم يشكله. لقد خلقت لنا الآذان لأننا نسمع، ونحن لا نسمع لأن لنا آذاناً. ولأن الأشياء في العالم متباينة كانت لنا وسائل متباينة للمعرفة والتعامل مع الأشياء حتى تقهر التشيّؤ وتؤسس التكامل من خلال جدل الاغتراب.

٨٤ ب ـ يطرأ القلقُ (على العناصر المكوِّنة للجسم البشري) سواء بالنسبة لها عندما تكدح أو عندما تطيع.

فإذا كان الإنسان مزدوج الدلالة وقادراً على اختيار إمّا عالم الكُمَّل والكاملين أو عالم الأشياء والمتشيّئين فإن اختياره الأول يقتضي منه كفاحاً ونضالاً واختياره الثاني يقتضي منه استنامة وتلقي الأوامر من الآخرين ما دام قد اختار عالم المتشيّئين. لكنه في كلا الحالين يكون في حالة القلق، لأنه باختياره إمّا سيكسب العالم بعد كدحه أو يفقد العالم مع إطاعته. وهو قلق غير مرتبط بموضوع محدد على عكس الخوف الذي يترابط بموضوع معين كالخوف من الفشل، ولكنه قلق على الوجود في عموميته والذي إمّا أن ينجو من هوّة العدم أو يغوص فيها.

٢٦ ـ في الليل يشعل الإنسان ضوءاً لأن بصره كليل، وعندما يكون حياً يدنو من الإنسان الميت خلال النوم، وعندما يستيقظ يدنو من الإنسان الذي ينام.

هذا هو جدل الاغتراب: صراع بين التشيّؤ والتكامل، صراع بين النوم واليقظة. والتكامل هو خروج من عالم النيام إلى عالم الأيقاظ. وعندما يستيقظ الإنسان يكون قد أشعل قنديلاً يضيء مستقبل حياته.

١١١ ـ إن المرض يجعل الصحة طيبة ورائعة، ويجعل الجوع شبعاً ويجعل القلق راحة.

ولقد عُرِف عن الفيلسوف الألماني فريدريك نيتشه (١٨٤٤ ـ ١٩٠٠) أنه

كان مريضاً للغاية، لكن هذا المرض هو الذي دفعه إلى المنادة بإرادة القوة، أي إرادة الحياة لتتجاوز الحياةُ الحياةَ، وكان هذا هو الذي أوصله إلى شاطىء الأمل. التشيّؤ يكبِّل الإنسان، لكنه هو أيضاً فيه جانب جدلي يجعل الإنسان يتجاوزه ويقهره ليطلّ على عالم الأيقاظ، عالم الكاملين.

٦٨ ـ (يسمي هيرقليطس طقوس الأسرار المخجلة) أشكالاً من العلاج.

إن التشيّؤ درجات، والخروج من التشيّؤ يتم على مراحل وبطرق شتّى. وبالرغم من أن الطقوس جزء من بنية التشيّؤ إلّا أن بها فعل تجميع الناس في لحظة أداء هذه الطقوس. ولحظة التجميع خطوة نحو الوصول إلى العقل الكلي الذي هو عقل التجميع والمحبة لإيجاد التناغم بين البشر.

٦٩ ـ هناك نوعان من التضحية: نوع يقدمه الناس الأنقياء الأصفياء للغاية ـ كما يحدث أحياناً ـ وإنْ كان بشكل نادر في الفرد أو في حفنة يسهل عدها، والتضحية الأخرى تضحية مادية.

وكما أن التشيّؤ درجات والخروج من التشيّؤ على مراحل، فإن التكامل درجات والوصول إليه يتم على مراحل. والأمر شأن المجاهدات الصوفية والترقي عبر المقامات حتى نصل إلى مقام الحرية كما يقول الجنيد. لكن هذا يقتضي أشكالاً من التضحيات أدناها التضحية بالمادة حتى تتأسس الذات وتخرج من الركوع لصنم المال. وأعلاها عند الذين صفت قلوبهم ووصلوا إلى مقام المشاهدة حيث يشهدون العقل الكلي. وهؤلاء هم الذين يؤسسون أنفسهم على الأرض المشتركة، أرض التجميع.

١١٠ ـ خير للناس ألّا يحصلوا على كل ما يرغبونه.

إن الرغبة تستهلك صاحبها. إنها أشبه بالخط اللّامتناهي كلما سار عليه الإنسان بعدت عنه نقطة النهاية. والذي يفرِّق المتعة في الفن ـ مثلاً ـ عن اللذة العادية العابرة كما سوف يقول فيما بعد أرسطو ثم هيجل، هو أن المتعة

الفنية تستبقي موضوعها على حين أن الرغبة أو اللذة تستهلك هذا الموضوع. والاستهلاك يعني أن يدخل الإنسان برجليه مملكة النيام.

١١٢ ـ الاعتدال هو أكبر الفضائل والحكمة هي أن تنطق بالحق وتسلك بمقتضى الطبيعة وتبدأ (بالاعتدال).

إذا لم يكن هناك سبيل إلى الخروج من التشيّؤ إلّا سبيلاً واحداً فهو الاعتدال. لكن الاعتدال عند هيرقليطس وغيره من مفكري اليونان هو مراعاة حدود الأشياء وعدم تجاوز طبيعتها. يقول بيرنت في كتابه «الفلسفة اليونانية»: «لقد ذهب أنكسماندر إلى أن كل الأشياء يجب أن تعود إلى اللّامحدود ومن ثمّ ينال كل منها عقاباً من الآخر بسبب جوره، وما يعتبره هيرقليطس اكتشافه الكبير يبدو أنه مرتبط بهذا القول ذاته».

١٩ ـ أوّاه من أولئك الذين لا يعرفون كيف ينصتون أو كيف يتحدثون.

يقول الشاعر الألماني هولدرلين (١٧٧٠ ـ ١٨٤٣) «منذ أن كنّا حواراً واستطاع بعضنا أن يسمع من البعض الآخر». ويعلّق الفيلسوف الألماني مارتن هيدجر في دراسته «هولدرلين والشعر» قائلاً: «منذ أن كنا حواراً ـ خبر الإنسان كثيراً من الأمور وسمّى عديداً من الآلهة ومنذ أن (تأرخت) اللغة حقاً على هيئة حوار تحدث الناس عن الآلهة وظهر العالم»(هيدجر«ما الفلسفة» ودراسات أخرى: ص ١٤٨) ويضيف: «منذ أن هدتنا الآلهة إلى الحوار، منذ ذلك الوقت وهو الزمان ومنذ ذلك الحين أصبح أساس آنيتنا حواراً» (ص ١٤٩). إن قيمة الإنسان كما يقول هيرقليطس هو الحوار والحديث وهذا يعني الحرية لأنه يقتضي آخر نتحاور ونتحادث معه وهذا تأسيس للغة، تأسيس للقول، تأسيس للعقل.

٢٩ ـ يفضل خيرة القوم شيئاً واحداً على ما عداه ألا وهو المجد الخالد بين الفانين. أمّا الغالبية العظمى فتقنع بأن تكون كالسائمة التي تقتات.

لكن على هذا الاختيار في لحظة القلق يتحقق الإنسـان أو يموت. فالإنسانية «فعل» فعل الوصول بالإنسان إلى الإنسانية. وعلى هذا فإن اختيار عالم الكاملين وتوجيه الاغتراب نحو التكامل هو اختيار القلّة التي لا ترتضي بأقل من المجد. أمّا الكثرة فهي تستريح إلى عالم نومها وتفضّل أن تعيش كالحيوان لا همَّ لها سوى عالمها الجزئي وقوت يومها الذي يكون فيه هلاكها.

١٣٧ ـ لقد صدق القدر على هذه المسألة.

أتُرى يقصد هيرقليطس وجود التشيّؤ والكمال، والصراع بينهما وأن الحرب هي سيدة الجميع وأنها هي العقل؟

وخُلِق الإنسان متشيّئاً...

٧٣ ـ لا يجب أن نتصرّف ولا يجب أن نتكلم مثل النائمين.

المأساة الكبرى للإنسان عند هيرقليطس هي النائمون. إن النائمين هم المتشيّؤون الذين يجرِّدون العالم من حقيقته. والتشيّؤ هو أن العلاقة الاجتماعية بين الناس تتخذ شكلاً خيالياً من العلاقة فتصبح وكأنها علاقة بين الأشياء ومن ثمَّ يُعامل الناس كالأشياء (انظر: Bullock, A. And Srallybrass, O.: The Fontana Dictionary of Modern Thought) إن النائمين بحكم انحصارهم في عالمهم الخاص ومصالحهم الذاتية ينظرون إلى البشر على أنهم كالأشياء هي موضع الاستعمال. ولهذا فإن أول مطالب هيرقليطس هي ألّا يكون نطقنا نطقاً جزئياً وفعلنا فعلاً جزئياً لأن هذا من شأنه أن يحوِّل العلاقات الإنسانية بين البشر إلى علاقات بين أشياء.

٧٤ ـ لا يجب أن نتصرّف أشبه بأطفال آبائنا.

إن النائمين علاقتهم الرئيسية فقدان التكامل، وهذا الفقدان هو الصفة الرئيسية في تصرف الأطفال. إن الأطفال لا يتبينون حقيقة العالم الذي هم فيه ومن ثمَّ ينحصرون في عوالمهم الذاتية.

٣٤ ـ إنهم لا يفهمون وإنْ كانوا يسمعون. إنهم أشبه بالصمِّ. والمثل ينطبق عليهم: «حاضرون ولكنهم غائبون».

وكيف نعرف هؤلاء المتشيِّئين النائمين؟ أول صفاتهم أنهم لا يستوعبون جواهر الأشياء وأنهم لا يفهمون حقيقة الأمور من حيث هي مترابطة ومتكاملة ولهذا فإن وجودهم أشبه بالعدم. ويصورهم هيرقليطس بشكل قريب مما صوره القرآن الكريم بشكل أدق ﴿إن شرَّ الدواب عند الله الصمُّ البكمُ﴾ (الأنفال: ٢٢) و ﴿ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم﴾ (البقرة: ٧).

١٢٨ ـ إنهم (اليونانيون) يسجدون لآلهة لا تسمعهم وكأنها تسمعهم وهي لا تمنحهم شيئاً بمثل ما لا تستطيع أن تطلب.

والصفة الثانية للمتشيِّئين النائمين أنهم يصنعون آلهة هي من صنعهم ثم يسجدون لعمل أيديهم. يقول عالم النفس الأمريكي إريك فروم (١٩٠٠ ـ ١٩٨٠) عن الصنمية Idolarory في كتابه «المجتمع السوي»: «الإنسان ينفق طاقته وقدراته الفنية في تشييد صنم ثم يعبد هذا الصنم الذي هو ليس إلّا نتيجة جهده الخاص. إن قوى حياته قد حطّت في شيء وهذا الشيء وقد أصبح صنماً لا يُعاش على أنه نتيجة جهده الإنتاجي الخاص بل على أنه شيء بمعزل عن نفسه، فوقه وضده، يعبده ويخضع له».

وهذا المعنى قريب مما جاء في العهد القديم: «أصنام الأمم فضة وذهب عمل أيدي الناس. لها أفواه ولا تتكلم. لها أعين ولا تبصر. لها آذان ولا تسمع كذلك ليس في أفواهها نفس مثلها يكون صانعوها وكل مَنْ يتكّل عليها». «المزامير: ١٣٥/١٥ ـ ١٨).

١٠٤ ـ أيُّ عقل أو فهم لديهم؟ إنهم يؤمنون بشعراء الدهماء ويجعلونَ العامة معلمينهم، إنهم لا يعرفون «أن الغالبية سيئة والأخيار هم القلّة».

وتمتد الصنمية عند هيرقليطس إلى ما أسماه البريطاني فرنسيس بيكون (١٥٦١ ـ ١٦٢٦) بأوهام المسرح وهي عبادة العظماء وأقوالهم. إن المتشيِّئين النائمين يتبعون الشعراء الذين يوجهون شعرهم للسوقة وبأمل الحصول على

رضاهم يزيفون الحقائق في هذه الأشعار ويعتمدون على الإثارة. والقلّة المستثناة هي التي لا تؤمن بالأقوال الشائعة لأنها تهتم بالحقائق.

٦٥ ـ الحاجة والتخمة.

لقد استطاع هيرقليطس أن يجمع في هاتين الكلمتين كل عالم التشيّؤ. إن العوز يجعل الإنسان يلتفت إلى الجانب المادي سعياً وراءه حتى يستريح ومن ثمَّ يكتسب ذاتاً غير ذاته الحقيقية التي تسعى إلى التكامل الروحي. والتخمة تجعل الإنسان يفقد ذاته الأصيلة خضوعاً لصنم المال ويدخل طائعاً إلى عالم النيام. والنائم مصيبته أشد لأنه وهو يفقد ذاته قد لا يكتسب حتى ذاتاً متشيئة وتصبح نفسه فقاعة صابون جوفاء.

٣٧ ـ تغتسل الخنازير في الأوحال وتغتسل الطيور في التراب أو الهشيم.

إن المشيئين النائمين المحصورين في ذواتهم ليسوا إلاّ خنازير. إنهم غائصون في الأوحال ملتصقون بالمادة فاقدون للبُعْدِ الروحي الذي يرفعهم درجات فوق عالمهم الحسي المباشر.

١٣ ـ لا تعربدوا في الأوحال فإن الخنازير تستمتع بالأوحال أكثر مما تستمتع بالماء النقي.

إن المتشيّئين النائمين الذين لا يرتفعون عن عالمهم الحسي درجات يستمتعون بأوحالهم وهي متعة رخيصة لا ترقى إلى متع العقل والروح حيث النقاء والصفاء ومن هنا كان صوت هيرقليطس صوتاً نبوئياً مبشراً ونذيراً حتى يخرج الناس من عالمهم الطيني.

١١ ـ تُسَاق السائمة إلى المرعى بالضرب.

وهؤلاء المتشيّئون النائمون وقد استحالوا إلى خنازير لا يعيشون إلاّ على

العبودية. لقد فقدوا ذواتهم الأصيلة واكتسبوا ذواتاً زائفة تجعلهم يهربون من أن يعيشوا ذواتهم الحقة. لقد فقدوا الحرية واكتسبوا هذه الذوات المزيفة حتى يتحقق لهم ما أسماه عالم النفس الأمريكي إريك فروم «الهرب من الحرية»، وساعتها يُقاد الإنسان بعصا الأوامر ويكون أشبه بالحيوان.

٩٧ ـ تنبح الكلاب على كل من لا تتبينه.

والمتشيّئون النائمون لا يكتفون بأن يصبحوا خنازير برية تشيأت وحدها، بل هي تريد أيضاً من الآخرين أن «يتخنزروا» معهم. إذا استحالوا إلى خراتيت فيجب على الآخرين أيضاً أن «يتخرتتوا» معهم على نحو ما صوّر الكاتب المسرحي الروماني المولد الفرنسي المواطنية يوجين يونيسكو المولود عام ١٩١٢ في مسرحيته «الخراتيت». وإذا استحال المتشيّئون النائمون إلى كلاب فإنها تنبح على كل مَنْ هبّ ودبّ ممّنْ ليس من فصيلتها مبدية له عداوة لأنه لم «يتكلبب» مثلها.

٩ ـ تفضِّل الحميرُ التبنَ على الذهب.

ولا يقتصر الأمر لدى المتشيّئين النائمين على أن يتخنزروا أو يتخرتتوا أو يتكلببوا، بل إنهم يتحمررون أيضاً ويصبحون من زمرة الحمير. والحمير بحكم غبائها لا تستطيع أن تتبين جواهر الأشياء فتبعد عن الشيء النفيس الجوهري وتبعد عمّا هو حقيقي ولا تقبل إلاّ على الأشياء السطحية التي فيها مصلحتها المباشرة ومن هنا إقبالها على توافه الأشياء وقشورها.

١٣٢ ـ إن التمسك بالمظهر الخارجي للشرف يسجن الآلهة والبشر.

إن المتشيّئين النائمين لا يعنون بجواهر الأشياء، بل يعتون بالناحية المظهرية ولهذا فإنهم «يتحمررون». والتمسك بالمظهر الخارجي يصبح قيداً يحول بينهم وبين الجوهر فيضيعون.

٤ - لو كانت السعادة قائمة في المباهج الجسدية لكان يمكننا أن نعد الثيران سعيدة عندما تجد علفاً تقتات به.

إن المتشيّىء متعته مباشرة محدودة بالرغبات الجسدية لا الرغبات الروحية، إنه لا يحلِّق ولا يرسم له أفقاً ويفقد كل أمل بأن يرفع رأسه إلى السماء. ويقول لنا أرسطو إن رفع الإنسان رأسه إلى السماء معناه أن تُكتَب له الحرية لأنه يتحرر من الأرض وما هو جزئي ومباشر. ومن هنا فإن الإنسان «يتثورن»، لا همَّ له إلاّ إشباع المطالب الوقتية الحسية.

٢٠ - عندما يولدون يكونون راغبين في العيش وتقبل مصيرهم (موتهم)، ويخلِّفون وراءهم أطفالاً ليصبحوا بدورهم ضحايا القدر والمصير.

إن عالم النيام المتشيّئين هو عالم كوابيس، عالم يتقبل العالم المليء بفقدان الناس إنسانيتهم والرضى بمجرد العيش دون قتال تأسيساً للإنسان. ولا همَّ للنيام إلاّ أن ينجبوا أطفالاً من فصيلتهم ويوسِّعون من رقعة عالم النيام فيزداد عالم التشيّؤ اتساعاً.

١٣١ - الغرور عقبة (كأداء) في سبيل التقدم.

وهؤلاء المتشيّئون النائمون باكتسابهم ذواتاً زائفة تنحصر في عوالمهم الخاصة يكتسبون أخلاقيات زائفة فيصابون بالغرور. وهو غرور يمنع تقدمهم لأن التقدم لا يأتي إلاّ من الرجوع إلى العقل، فالعقل هو الذي يحرر الإنسان أخلاقياً. يقول عبد الرحمن بدوي في كتابه «ربيع الفكر اليوناني»: «نجد أن أول بحث في الأخلاق بمعناها الحقيقي عند اليونان، كان هيرقليطس هو أول مَنْ قام به، فقد كان يطالب بالحرية الأخلاقية وبأن يسير الإنسان على العقل في أفعاله وبألاّ يتبع العامة والمجموعة وكان من أجل هذا يحمل على الديموقراطية لأنها قانون العامة وأوساط الناس» (ص ١٤٣).

٢٢ - الذين يبحثون عن الذهب يحفرون في الأرض كثيراً ولا يجدون إلاّ القليل.

هذه هي حال المتشيّئين الذين يهتمون بصنم المال، يعبدونه لكنه صنم أصمّ لا يفيدهم شيئاً. إنهم يحفرون كثيراً بحثاً عن الجزئي والحسي، فلا يجنون شيئاً لأنهم يبحثون عمّا لا يجب البحث عنه.

٧٧ ـ بهجة للنفوس أو موت لها أن تصبح رطبة... إننا نعيش موت النفوس وتعيش النفوس موتنا.

المتشيّئون النائمون يبتهجون إذا غرقت نفوسهم في مستنقع ما هو جزئي وحسي، لكن هذا الغرق عند الكاملين المستيقظين هو قمة المأساة وذروتها. فلكي تحيا حياة حقّة يجب أن تموت النفس المتشيّئة الأمّارة بالسوء وتولد النفس الكاملة المطمئنة.

٩٨ ـ النفوس لها نفس الرائحة التي في الجحيم.

ربما يقصد النفوس التي لم ترتفع إلى مصاف العقل وظلّت مقيدة بما هو جزئي وحسي وظلت في عالم النيام.

١٤ ـ الهائمون على وجوههم في الليل والسَحَرَة وعَبَدة إله الخمر باخوس والساحرات والصوفية: إن طقوسهم التي يتقبلها الناس في أعياد الأسرار هي عروض غير مقدسة.

ومن مظاهر التشيّؤ الوقوف عند الطقوس الخارجية دون استبصار باب العبادات. فالعبادة الحقة هي إسقاط كل ما عدا الله والإبقاء على وجهه. لكن الناس يصنعون الطقوس بأيديهم وهي غير مقدسة ويسجدون لها وبهذا يزداد جبل التشيّؤ ارتفاعاً.

١٥ ـ إذا لم يكن من أجل تكريم إلّه الخصب والنماء ديونيسوس قيادتهم لموكب الاحتفال وغناؤهم للترنيمة عن عضو الذكورة، فإن جهدهم سيكون مخزياً للغاية. ولكن إلّه الجحيم حادس هو ممثل الإلـه

ديونيسوس يقدمون له مظاهر التكريم بأداء العربدات الخاص بباخوس إلّه الخمر.

لقد انغمروا في تشيّؤهم حتى أنهم في احتفالاتهم خلطوا بين الإلّه ديونيسوس إلّه الخصب والنماء والتجدد والإلّه حادس إلّه العمى والظلمة والجحيم.

٥ - إنهم يطهِّرون أنفسهم بأن يلطخوا أنفسهم بدم الآخرين. كما لو كان على الإنسان أن ينغمس في الطين لكي يغتسل من الطين. ولكن سيعد الإنسان مجنوناً أذا تصوره رفاقه وهو يتصرّف على هذا النحو. زيادة على ذلك، إنهم يتحدثون لتماثيلهم التي يعبدونها كما لو كان الإنسان عليه أن يتحدث إلى منازله خلال جهله بطبيعة الآلهة والأبطال.

يسخر هيرقليطس من الراغبين في التطهير من الدنس بمزيد من الانغماس في الدنس. وهؤلاء هم النيام الذين ينطرحون لآلهة من صنعهم.

١٢٧ - (إلى المصريين): «لو كانت آلهة فلماذا تلومُنّها؟ وإذا وجهتم إليها اللوم فلا يجب أن تستمروا في عدها كالآلهة».

إذا نحت الإنسان بنفسه تمثالاً على أنه إلّه فلماذا يوجه إليه اللوم وهومن صنعه؟ وإذا حدث اللوم فإن التمثال لا يعد تمثالاً. وهيرقليطس إنما يسير في نهجه الذي اتبعه: مهاجمة المتشيّئين النيام.

٣ - (بالنسبة لحجم الشمس): إنها بعرض قدم الإنسان.

ويتمسك المتشيّؤون النائمون بظواهر حواسهم ويقصرون معرفتهم على المعرفة الحسية. فقد نحّوا العقل جانباً وبدل أن تكون الحقيقة بحجم الشمس تتقلص وتصبح في نظرهم بعرض قدم الإنسان فحسب.

١٧ - إن كثيرين من الناس - الذين يواجهون مثل هذه الأشياء - لا

يفهمونها ولا يلتقطونها بعد أن يتعلموا، ولكنهم بالنسبة لأنفسهم يبدون وكأنهم (يفهمون).

يظن المتشيّؤون النائمون أن المعرفة الحقيقية هي معرفة ما هو جزئي والتوقف عند هذا. إنهم يفهمون الأشياء فرادى في حالة انفصال. وهذا عكس الكاملين المستيقظين الذين يفهمون الأشياء في حالة ترابطها.

١٠٧ ـ العيون والآذان شهود سيئة للناس إذا ما كانت لهم نفوس بربرية.

لا يرفض هيرقليطس شهادة الحواس على إطلاقها. ولكن هذه الشهادة مرفوضة تماماً بالنسبة للمتشيّئين النائمين الذين اكتسبوا ذواتاً مزيفة بحيث لا تصلح العيون والآذان لتوصيل المعارف الحقيقية. أمّا مَنْ ليست لهم نفوس بربرية، بل كانت لهم نفوس كلية ارتفعت من ذواتها والعوالم الخاصة إلى ذوات الآخرين والعوالم الكلية فهي محصنة بالعقل، ومن ثمَّ لا خوف عليها من شهادة الحواس.

٩٥ ـ من الأفضل إخفاء الجهل (بالرغم من صعوبة القيام بهذا في حالة الاسترخاء وساعة احتساء النبيذ).

أفلا يَحسُنُ بهؤلاء المتشيّئين النائمين إخفاء جهلهم؟ إن المهمة شاقة وذلك بحكم اكتسابهم لنفوس متشيّئة زائفة ترى في الجهل علماً. إنها نفوس سُجِنت في تفضيلها لراحة النائمين. ولهذا فهي تفضل الجهل على المعرفة التي تقتضي يقظة وانتباهاً. وهي نفوس سُجِنت في سكرها من خمر ما هو جزئي، ولهذا فهي تفضل الجهل على المعرفة التي تقتضي الخروج من حالة السكر وصولاً إلى يقظة ما هو كلي.

١٠٩ ـ انظر : ٩٥

. . . .

(انظر الشذرة السابقة مباشرة).

١١٧ ـ عندما يسكر الرجل فإنه يتخبّط ويقوده غلام صغير غير عارف إلى أين يتجه وتكون نفسه قد تشتّت.

إن المتشيّئين النائمين تسكرهم توافه الأمور وينتشون بها ومن ثمَّ يزدادون نوماً، وبهذا يضلّون طريقهم ويدخلون إلى زقاق مقفل لا مخرج له بسبب انحصارهم في أسطح الأشياء، ويمكن لأبسط الناس أن يضللوهم فينقادون لأنهم صاروا كالحيوانات الخاضعة.

٧١ ـ (يجب أن يتذكر الإنسان أيضاً) الشخص الذي ينسى ألى أين يفضي الطريق.

إن الشخص الذي يفقد طريقه إنما هو شخص رانَ عليه تشيّؤه بحجاب لا يجعله يبصر العقل الكلي. وإن مَنْ ينسى طريقه حتى ولو دون تعمد إنما هو شخص يتخبّط ويعيش في عالم التخمينات لا عالم الحقائق واليقين والضرورة. وهذا الشخص خطر على المغترب الساعي إلى الكمال. إن المتشيّىء لا يقتصر تشيّؤه على نفسه بل يحاول أن يجرَّ الآخرين إلى تشيّؤهم وهذا مكمن الخطورة.

٢٨ ـ إن الإنسان المتظاهر بالحكمة لا يعرف أو لا يحتفظ إلاّ بما يبدو ويظهر، زيادة على ذلك فإن العقاب يحيق بناسجي الأكاذيب والشهادة (الزور).

إن هؤلاء المتشيّئين النائمين عالمهم عالم ادّعاء لا يعرفون إلاّ ما هو متعلق بالحواس والوقوف عند أسطح الأشياء ولهذا يسهل عليهم الكذب والخداع.

ولهذا فإنهم يعاقبون أنفسهم بأنفسهم لأنهم يبتعدون عن عالم الأيقاظ الذي يوحِّد بين البشر ويكافئهم بالمحبة والوحدة.

١٣٣ ـ السيئون هم الأدعياء بنشدان الحقيقة.

بل إن هؤلاء المتشيِّئين النائمين تكون لهم اليد العليا في الحياة. إنهم لا يكتفون بأنهم سجناء ما هو جزئي وحسي بل يرون أن ما يرونه من خلال شهادة الحواس هو الحقيقة ومن ثمَّ فإنهم لا يكتفون بتشيُّئهم بل يريدون بإعلانهم أن تشيُّؤهم هو الحقيقة أن يشيِّئوا بقية مَنْ لم يتشيَّأ بعد.

٣٣ ـ إن إطاعة إرادة إنسان ما هي أيضاً قانون (القانون السياسي).

إن المتشيِّئين النائمين قد فقدوا العقل، وبالتالي فقدوا الانقياد للعقل فينقادون لكل ما خلا العقل بسبب أنهم نيام لهم عوالمهم الخاصة المنفصلة ومن ثمَّ فإنهم يطيعون أصحاب العوالم الخاصة لا الباحثين عن الأرض المشتركة. وهذه الطاعة تأكيد للتشيُّؤ فبدل أن يطيعوا العقل الكلي، يطيعون العقل الجزئي، لكن هذه الطاعة هي بدورها قانون، إلاّ أنه قانون الأشياء لا قانون البشر، قانون التشيُّؤ والمتشيِّئين، لا قانون الإنسانية والإنسانيين.

٥٨ ـ وعلى سبيل المثال فإن الأطباء الذين يبترون ويكوون الجروح يطالبون بأجر بالرغم من أنهم لا يستحقون شيئاً فهم يتسببون في الآلام نفسها التي يسببها المرض.

إن عالم التشيُّؤ عالم واسع. فالذين يُفتَرض فيه أنهم يداوون الجروح يزيدون الجروح بمطالبتهم أجراً للعلاج. إنهم يسببون ألماً للروح بقدر ما أن الجرح يسبب ألماً للجسم. إن المتشيئين من الأطباء يخرجون من إنسانيتهم ويدخلون مرضاهم عالم النيام.

٤٦ ـ الغرور هو الداء الأعظم (أي الصرع).

إن الإنسان الساعي إلى الكمال، أي الساعي إلى الوصول إلى مرتبة الآلهة والتحلّي بالعقل الكلي يجب أن يُدرك أنه طوال الطريق لم يصل بعد إلى تكامله. فإذا تسلل إليه الغرور فمعنى هذا أن مرض التشيّؤ قد أصابه وصرعه خلال الطريق وأعاقه عن مواصلة السير بل وجذبه إلى الوراء خطوات.

٤٣ ـ يجب أن يخمد الإنسان الغطرسة بدل أن يؤججها.

لقد اتُّهِم هيرقليطس بالتعالي على الناس، لكن تعاليه كان في حقيقته تعالياً على فئة منهم هم المتشيّئين النائمين. إنهم يتغطرسون ويستعلون على الكاملين المؤمنين بالعقل. وغطرستهم نابعة من عالمهم الخاص الجزئي الحسي لا من جدارة العقل الكلي الموحِّد للبشر والباحث عن الأرض المشتركة بين الجميع.

٨٧ ـ الرجل السخيف معرَّض لأن يكون متملقاً في كل كلمة (أو نظرية: اللوجوس).

ولا يشتغل المتشيّئون النائمون إلّا على أرض النفاق لأنهم لا يتعاملون مع بعض بالعقل، أرض الحقيقة، بل بالحواس، أرض الخداع. والخداع قد يفضي إلى التضليل والغش والتدليس والنفاق. وكما يقول الفيلسوف الوجودي مارتن هيدجر (١٨٨٩ ـ ١٩٧٦) في كتابه «ماهية الحقيقة»: «الضلال الذي يمضي فيه الإنسان ليس شيئاً يسعى بجانبه ويحاذي طريقه وكأنه حفرة يسقط فيها أحياناً وإنما الضلال جزء من تكوين الآنية التي خُلِّيَ بين الإنسان التاريخي وبينها» (نداء الحقيقة ـ ترجمة عبد الغفار مكاوي ص ٢٨٩). إن الضلال بكل أشكاله جزء من نسيج الوجود الإنساني أو الآنية Dasein لأن الإنسان هو الكائن القادر على التشيّؤ فالتشيّؤ جزء من نسيج البنية الإنسانية.

١٣٠ ـ ليس من الملائم أن تكون مضحكاً للغاية حتى أنك تبدو أنت نفسك مضحكاً.

إن المتشيّئين يهتمون بالملبس والمأكل والمسكن وبكل ما هو خارجي خارج مملكة الروح. وهذا يحوِّلهم في أعين المغتربين الباحثين عن الكمال إلى دمى من شمع أو حواة أو مهرجين. وذروة التهريج أن يتحول الإنسان الذي هو من روح إلى مهرِّج ويختار بنفسه أن يعمل مهرجاً في مسرح الحياة.

٧٥ ـ إن أولئك النائمين إنما يعملون ويشاركون في أوجه النشاط الجارية في الكون.

وتصل ذروة فهم هيرقليطس للتشيّؤ إلى أن النائمين لا يقتصر نومهم عليهم وحدهم وأنهم لا يتشيّئون وحدهم بل يمتد التشيّؤ إلى العلاقات، فإنهم يسقطون تشيؤهم على العالم والإنسان والعلاقات بين البشر. إن المتشيّئين لا يهربون من الحقيقة إلى الضلال فحسب بل يقيمون العالم على أساس أن الجميع سلع تُباع وتُشترى. وكما يقول جورج لوكاتش (١٨٨٥ ـ ١٩٧١) في كتابه «التاريخ والوعي الطبقي»: «التشيّؤ يقتضي أن يتعلم المجتمع أن يشبع كل حاجاته في إطار تبادل السلع... إن العقل المتشيّىء يصرّ على اعتبار السلع الممثلة الحقة لوجودها الاجتماعي».

٩٦ ـ الجثمان يستحق الإطاحة به أكثر مما يستحقه الروث.

إن النائمين المتشيّئين يستحيلون إلى جثث ميتة. والجثث الميتة مآلها أن يُقذَف بها بعيداً. وهذا ما يمكن أن يقوم به المغتربون الباحثون عن الكمال والخروج من الحالة الجزئية وهذا جوهر الاغتراب: إنه حامل للتشيّؤ وللتكامل معاً. ولمّا كان الضلال سمة كبرى في التشيّؤ وكان التشيّؤ ذا علاقة جدلية داخل بنية الاغتراب، فإن الضلال يحمل إمكانية عكسية: إن الضلال «يسهم في نفس الوقت في إيجاد تلك الإمكانية التي يستطيع الإنسان أن

ينتزعها من الخارج وهي إمكانية ألاّ يقع في الضلال، (هيدجر: نداء الحقيقة ص ٢٩٠).

وخُلِق الإنسان حكيماً...

٣٥ ـ الذين يحبون الحكمة يجب أن يكونوا متسائلين عن أشياء عديدة في الحقيقة.

بعد التخلص من جثة التشيّؤ يبدأ سعي المغترب إلى التكامل وتبدأ رحلته بجعل الحكمة أسلوبه في الفكر والحياة حتى يخرج من تناهيه وانحصاره فيما هو جزئي. والبداية وضع الوجود الجزئي الحسي موضع التساؤل والشك. والفلسفة بهذا كما يقول أرسطو (٣٤٨ ق.م ـ ٣٢٢ ق.م) ربيبة الدهشة بعد وضع الوجود موضع التساؤل. والدهشة ـ كما يقول هيدجر ـ تقربنا إلى أنفسنا. غير أن التفكير الفلسفي ليس لهواً. يقول هيدجر في كتابه «التفكير اليوناني المبكر»: «إن التفكير يغيّر العالم، إنه يغيره في الأعماق الأكثر إظلاماً للغز، الأعماق التي وهي تزداد حلكة تقدم وعداً باستضاء أكبر» (ص ٧٨). وهكذا نجد أن النفس عند هيرقليطس ـ كما يقول بيرنت في كتابه «الفلسفة اليونانية» ـ «لم تعد شبحاً أو شكلاً ضعيفاً بل هي أكثر شيء حقيقي وأكبر صفة هامة لها هي الفكر أو الحكمة» (ص ٥٩).

٤٠ ـ كثرة المعلومات لا تعلِّم إنساناً حتى يتمتع بالذكاء والعقل، وإلّا لكانت كثرة المعلومات قد علَّمت هزيود وفيثاغوراس ولعلّمت أيضاً أكزينوفان وهيكاتايوس.

غير أن تراكم المعلومات ليس هو الطريق إلى الحكمة فكثرة المعلومات لا

تخلق إنساناً جديداً ولا تجعله يفهم العالم فهماً أعمق. وينفي هيرقليطس عن عدد من مفكري اليونان القدماء صفة الحكمة لأنهم اعتمدوا على وفرة المعلومات فحسب. أولاً الشاعر هزيود في القرن الثامن قبل الميلاد أكبر الشعراء التعليميين في ديوانه «الأعمال والأيام» وثانياً الفيلسوف اليوناني فيثاغوراس (حوالي ٥٨٠ ق.م ـ ٥٠٠ ق.م) القائل بتناسخ الأرواح. والفيلسوف أكزينوفان (٥٦٠ ق. م. ـ ٤٧٨ ق. م.) مؤسس المدرسة الإيلية النافية للحركة والكثرة، والمفكر اليوناني هيكاتايوس.

١٣٤ ـ التربية هي شمس أخرى لِمَنْ يتعلمون.

الوسيلة الوحيدة للمعرفة هي أن يضع الإنسان وجوده موضع التساؤل. يقول الفيلسوف الألماني المولد الأمريكي المواطنة بول تيليش (١٨٨٦ ـ ١٩٦٥) في كتابه «زعزعة الأساسات»: إن إنساناً يقرأ خمسة آلاف كتاب قد يظل جاهلاً. وقد يأتي عامل بسيط ذو ثقافة محدودة فيطرح أسئلة من نوع ما هي حياته؟ لماذا تكون هكذا؟ إلى أين تسير؟ ما هو المصير؟ فيكون تساؤله بداية انسحاب من عالم الحواس واقتراباً من الذات سعياً إلى معرفة جديدة تحدث له انقلاباً في شخصيته، وهذا هو جوهر التربية: أنْ تغير نمط التفكير السائد وتصبح شمساً هادية لخلق إنسان جديد.

٤٧ ـ لا تدعونا نلقِ بالتخمينات كيفما اتفق عن أعظم الأشياء وأخطرها.

وسبيل هذه المعرفة شيئان. الأول سلبي هو عدم إقامة المعرفة على التخمينات. ويحذّرنا هيرقليطس من خطر التخمين بالنسبة لجلائل الأمور والأعمال، فالمعرفة الحقة لا تأتي نتيجة الفروض التي قد تخطىء وقد تصيب.

٧٠ ـ (تخمينات الناس ليست إلّا) لعب أطفال.

إن التخمين في المعرفة أشبه بلعب النرد قائم على الحظ. وهي لعبة إنْ كانت تلائم الصغار إلّا أنها خطرة لو لعبها الكبار. إنها لعبة تلائم المتشيّئين

النائمين الغارقين في عالمهم الخاص. أمّا المغتربون الباحثون عن الكمال فإن سبيلهم درب آخر.

٤١ ـ إن ما يتصف بالحكمة أمر واحد: هو تفهم الغرض الذي يوجِّه الأشياء جميعاً ويسيِّرها من خلال الأشياء جميعاً.

والدرب الآخر للمعرفة الحقة سبيل إيجابي هو تفهم العلل والأسباب. البحث عن الضروري ـ لا العَرَضي ـ هو طريق الفيلسوف الحكيم الذي هو مثال للإنسان المغترب الساعي للكمال. والضروري عند هيرقليطس هو العقلي الكلي. يقول فلوطرخس في «الآراء الطبيعية»: «إن إيراقليطس يرى أن الأشياء بالبخت وأن البخت هو الضرورة وأن جوهر البخت هو النطق العقلي الذي ينفذ في جوهر الكل وهو الجسم الأثيري الذي هو زرع لتكوين الكل» (علي سامي النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام» الجزء الأول ص ١٣٥).

١٠٨ ـ من كل أولئك الذين يتحدثون والذين استمعت إليهم لم يتبين أيٌ منهم أن ذلك الذي يتصف بالحكمة إنما هو شيء مغاير عن كل الأشياء.

إن ما يتصف بالحكمة مغاير للمألوف. فالمألوف وقوف عند ما هو جزئي بينما الحكمة وقوف عند ما هو كلي. المألوف وقوف عند ما هو عَرَضي بينما الحكمة وقوف عند ما هو ضروري. المألوف وقوف عند ما هو حسي بينما الحكمة وقوف عند ما هو عقلي. المألوف وقوف عند ما هو متشيّىء غارق في النوم في عالمه الخاص والحكمة وقوف عند ما هو متكامل مستيقظ في العالم المشترك مع الآخرين.

٣٨ ـ لقد كان طاليس أول مَنْ درس علم الفلك.

يمجِّد هيرقليطس أول فيلسوف يوناني وهو طاليس لأنه درس علم

الفلك. إن التخمين جزء من عالم التشيّؤ، بينما معرفة القوانين الموضوعية بداية طريق الحكمة، والسير على درب المستيقظين.

٣٢ ـ إن ما يتصف بالحكمة هو وحده شيء واحد، وهو يتأرجح بين الرغبة وانتفائها في أن يتسمّى بإسم الإله زيوس.

إن جوهر الحقيقة واحد، المبدأ الموحِّد، المبدأ الذي يجمع بالحب، مبدأ الكل، مبدأ الترابط، مبدأ الضرورة، مبدأ العقل، مبدأ التكامل ومن ثمَّ فإن العقل والوحدة والكلية والحب والضرورة والترابطية والتكاملية مترادفات، فالحقيقة واحدة وكلها صفات للحكيم. وهذا الواحد ليس إسماً ولكنه «فعل»، فعل التوحيد والتجميع فكله حركة وهو يقتضي قتالاً من أجل تأسيسه. يقول هيدجر في «التفكير اليوناني المبكر»:

«الواحد الفريد يوحِّد ما هو مطروح، ذلك المطروح الذي يجمِّع» (ص ٧٠) وهذا الواحد يتكوّن في آخر الزمان شأن العقل عند ابن رشد وبعد قتال من أجل تأسيسه، فالحرب جوهره من أجل واحديته ومحبته وتجميعه وكليته وضرورته وترابطه وعقلانيته وتكامله.

وخُلِق الإنسان عاقلاً...

١١٣ ـ مَلَكَة التفكير مشتركة بين الجميع.

وحتى يمكن أن يتصف الإنسان بالحكمة ويصبح الإله زيوس رب القدرة والمعرفة الكلية عليه أن يتحلّى بالعقل، المَلَكَة المشتركة بين الجميع. إن الحواس خاصة بكل فرد على حدة، فهي أرض التفرقة وهي أرض المتشيّئين النائمين الملتحفين بعالمهم الخاص. وإذا أراد المغترب خروجاً من هذه الحالة فليس أمامه إلاّ العقل، إلاّ أن «يعقل» بمعنى أن يفكر فالتفكير خروج من الجزئي وعالم النيام إلى الكلي وعالم الأيقاظ، وساعتها يعانق الآخرين ويدخل معهم فيما يمكن أن يسمى بالجبهة الوطنية إذا استخدمنا لغة السياسة ويدخل معهم فيما يمكن أن يُسمَى بالأممية إذا استخدمنا لغة الأيديولوجيا ويدخل معهم فيما يمكن أن يُسمَى بالتوحيد إذا استخدمنا لغة الدين.

١١٤ ـ إذا تكلمنا بالعقل أو بالحكمة فيجب أن نؤسس قوتنا على ما هو مشترك بين الجميع بمثل ما تؤسس المدينة قوتها على القانون (العقل) بل على نحو أقوى. ذلك أن كل القوانين الإنسانية تتغذّى بقانون واحد هو قانون إلهي وهذا العقل يحكم إلى المدى الذي يشاؤه وهو كافٍ للجميع بل هو أزيد من الكفاية.

يقول مارتن هيدجر في كتابه «التفكير اليوناني المبكر»: «منذ العصور القديمة ولوجوس هيرقليطس جرى تفسيره بعدة طرق: العقل، القانون

الكلي، المنطق، الضرورة في الفكر، المعنى، القوة الناطقة» (ص ٦٠). وبسبب كليته فإنه كافٍ للجميع لإخراجهم من رقادهم حتى يدخلوا عالم الأيقاظ.

٢ ـ لهذا يجب أن يتبع الإنسان اللوجوس أو القانون العام ألا وهو ذلك الذي هو شائع لدى الجميع. ولكن بالرغم من أن القانون عام إلاّ أن الغالبية تعيش كما لو كان لهم فهم خاص بأنفسهم.

إن هذا العقل متحجبٌ وراء مفاهيم الناس الخاصة. إن التحجّب هو حقيقته وهو لا ينكشف إلاّ بعد معاناة من جانب المغتربين الباحثين عن الخروج من التشيّؤ إلى التكامل. يقول هيدجر في «التفكير اليوناني المبكر»: «العقل هو في ذاته وفي الوقت نفسه كشف وحجاب» (ص ٧١) فأذا انكشف العقل كنا في عالم الأيقاظ وإذا ظلَّ في ظل الحجاب كنا ما نزال في عالم النيام.

يقول هيجل في الجزء الأول من «محاضرات حول تاريخ الفلسفة»: «العقل هو هذه العملية مع ما هو موضوعي: وعندما لا نكون في ارتباط بما هو كلي فإن كل ما هنالك هو أننا نكون لا نزال نحلم» (ص ٢٩٥).

١٦ ـ كيف يمكن أن يتسنّ لأي إنسان أن يتخفّى عن ذلك الذي لا يغرب أبداً؟.

فإذا كان هذا العقل هو الشمس الساطعة فكيف يمكننا أن نهرب منها؟ يقول هيدجر في دراسته «أليثيا» التي خصصها لهذه الشذرة في كتاب «نداء الحقيقة»: «إن سؤال هيرقليطس يفكر ـ إنْ جاز هذا التعبير الحديث ـ بطريقة عكسية. إنه يتفكّر في علاقة الإنسان بما لا يغيب أبداً، كما يفكر في الإنسان من خلال هذه العلاقة» (ص ٣٨٠). إن العقل يحتجب لكن احتجابه مؤقت لأنه لا بدّ أن ينكشف بفعل الباحثين عن الكمال. يقول

هيدجر: «إن هيرقليطس يفكر في استحالة الغياب. وإذا أخذنا هذا المفهوم اليوناني كان معناه استحالة الدخول في الاحتجاب» (ص ٣٨٩). أي أن مصير العقل الكشف عن حقيقته، فحقيقته هي الانفتاح.. يقول هيدجر: «لو تجرّأنا.. على تغيير صيغة البنية السابقة من النص إلى الإثبات تبين لنا أن هيرقليطس يفكر في الانفتاح الدائم» (ص ٣٨٧).

٧٢ ـ إن اللوجوس أو العقل الكلي بالرغم من أن الناس يرتبطون به أيما ارتباط إلاّ أنهم منفصلون عنه ولهذا فإن تلك الأشياء التي يواجهونها يومياً تبدو لهم غريبة.

إن هذا العقل الكلي، الشمس الساطعة الأبدية، والتي لا يستطيع أن يغيب عنها، لا يمكن للإنسان أن يهرب منه، لكن الناس في تشيّؤهم ينفصلون عنه ولهذا تبدو الأشياء غريبة. والغربة التي تحيط بالعالم هي نتيجة الانفصال عن العقل الكلي. وهذا الانفصال جزء رئيسي من نسيج التشيّؤ. ولهذا فإن المغتربين الباحثين عن التكامل لا بدّ وأن يقهروا انفصالهم عن ذلك الذي لا يغيب أبداً لأنه عقل إلهي. يقول جثري في كتابه «الفلسفة اليونانية»: «إن اللوجوس عند هيرقليطس يمكن مقارنته أحياناً بمفهوم زرادشت عن الكلمة الإلهية Ahuna Vairya والعقل الكلي Vohu Manq» (ص ٤٨٨).

٥٠ ـ عندما ينصتون ـ لا لي بل ـ للوجوس أو القانون العقلي، فإن من الحكمة الاتفاق على أن الأشياء جميعاً واحدة.

إن هذا اللوجوس ليس مجرد مَلَكَة معرفة فردية بل هو قانون عام موضوعي، ومن ثمَّ فإن الإنصات إليه يعني الإنصات إلى الموضوعية، الإنصات إلى أرض التوحيد الباحثة عمّا هو مشترك بين الجميع. يقول هيدجر في ترجمة مبسّطة لعبارة هيرقليطس في كتابه «التفكير اليوناني المبكر»: «لا

تنصتوا إليّ بل للطرح الذي يجمع، دعوا المماثل ينطرح: وما هو مصيري يحدث، فإن الواحد يجمع الكل» (ص ٧٥). ويفسِّر هيدجر الاستماع على أنه إنصات: «الإنصات هو أساساً استماع تجميعي فما يُسمعْ يكون حاضراً في الإنصات ونحن نسمع عندما نكون كلنا آذاناً» (ص ٦٥) ويضيف قائلاً: «نحن لا نسمع لأن لنا آذاناً، بل نحن آذان ـ أي أن أجسامنا مزوّدة بآذان ـ لأننا نسمع» (ص ٦٥).

١ ـ اللوجوس أو القانون الكلي (للكون) هو ـ كما هو وارد هنا ـ مشروح، غير أن الناس عاجزون دائماً عن فهمه سواء قبل أن يسمعوا به أو عندما يسمعون به لأول مرة. فبالرغم من أن الأشياء جميعاً تظهر إلى حيِّز الوجود بمقتضى هذا القانون، يبدو الناس كما لو أنهم لم يلتقوا به أبداً عندما يلتقون بالكلمات (النظريات) والأفعال (العمليات) على النحو الذي عرضته، وهم يفصلون كل شيء حسب طبيعته ويشرحون كيف صنع. أمّا بالنسبة لبقية الجنس البشري فإنهم لا يدرون بما يفعلون بعد استيقاظهم بمثل ما ينسون ما يفعلونه وهم نيام.

إن هذا القانون الكي أو العقل الموحِّد عقل عملي أيضاً فحسب إطاعته يتحدد الإنسان. يقول جومبرز في كتابه «مفكرو اليونان» في الجزء الأول: «إن الخضوع له وإطاعته هو الاختبار الأقصى للسلوك» (ص ٧٦).

٦٣ ـ عندما تكون الآلهة هناك فإن النفوس التي في الجحيم تنبعث وتصبح حراساً للأحياء والموتى.

هذا هو دور العقلاء المستيقظين الكاملين. إنهم بوصولهم إلى الكمال يصبحون حراساً للحقيقة، حراساً للإنسان كما يقول مارتن هيدجر في دراسته «رسالة حول النزعة الإنسانية». إنهم يحرسون الأحياء حيث يطلعونهم على جمال العقل، وهم يحرسون الموتى حتى يمنعوهم أن ينشروا تشيّؤهم إلى المستيقظين.

٦٧ ـ الآلهة هي النهار والليل، الشتاء والصيف، الحرب والسلام، التخمة والمجاعة. لكنه تغير أشبه بالنار التي عندما تختلط بدخان البخور تتسمى بحسب رغبة كل إنسان.

هذا هو العقل الكلي. إنه وحدة الأضداد وجدلها. إنه عقل سيال مليء بالحركة الجدلية. مبدأه الرئيسي: الحرب سيدة الجميع. وهذا العقل الإلهي لا ينكشف إلّا للصفوة من المغتربين الكاملين المستيقظين. والذين لم يصلوا إلى هذه الدرجة كل يراه بزاوية خاصة، فهم لم يصلوا إلى مقام المشاهدة.

١٢٠ ـ إن حدود الصباح والمساء هي الدب الأكبر وفي مواجهة الدب الأكبر تقف علامة الحدود الخاصة بالإله زيوس رب السماء الواضحة.

إن حدود العقل هي نفسها حدود الإله زيوس رب الأرباب. إن حدوده هي الكل الجامع للصباح والمساء. إن التكامل هو حدوده ومنتهاه؛ ولهذا فإن هذا العقل هو عقل إلهي.

٨٦ ـ (معظم ما هو إلهي) يفلت من نطاق التسليم به بسبب عدم الإيمان.

يقول الأب ترتليان (١٦٥ ـ ٢٢٠): إني أؤمن ببعث المسيح لأن هذا محال. إن الإيمان يعني التسليم باللّامتناهي وغيبة الإيمـان يعني التسليم بالعادي والجزئي والحسي. الإيمان يرفعنا إلى الفريد والكلي والعقلي. ولهذا فإن الإيمان بالعقل جزء أساسي من مكوِّنات العقل، ولهذا فإن العقل عند هيرقليطس عقل إلهي.

٤٤ ـ يجب أن يقاتل الناس من أجل اللوجوس أو القانون العقلي كما لو كانوا يقاتلون دفاعاً عن أسوار مدينتهم.

فإذا كان العقل هو أرض التوحيد، الأرض المشتركة، أرض المحبة، أرض الموضوعية، أرض الكلية، أرض التكـاملية، فـإنه أجـدر الأشياء

باتباعه. إنه يصبح أهم ممتلكات الإنسان لأنه هو الملكية الباقية الأبدية. وإذا كان العقل عزيزاً بهذا القدر فإنه الأجدر بالدفاع عنه والقتال من أجله؛ فالدفاع عن الوطن والقتال من أجله محصور في نظر هيرقليطس بالرقعة السكانية، لكن الدفاع عن العقل والقتال من أجله يوسِّع من الرقعة فيجعلها باتساع العالم كله، باتساع العقل الكلي ويصبح الدفاع عن العقل الكلي والقتال من أجله جزءاً جوهرياً من نسيج الإنسان المغترب الباحث عن الكمال خروجاً من حالة التشيّؤ.

وخُلِق الإنسان مقاتلاً...

٨٠ ـ يجب على الإنسان أن يعرف أن الحرب عامة والشريعة هي النزاع وكل شيء يبرز إلى حيِّز الوجود عن طريق النزاع والضرورة.

إن العقل يتكوّن ثم يتكامل مع آخر الزمان، إن العقل «فعل» تعقل، والاستيقاظ من عالم النيام لا يتم بتعويذة سحرية، والتوحيد ليس شيئاً بل عملية، والحب ليس حجراً متكلساً منذ البداية بل يجب القتال من أجله وتأسيسه ومن ثمَّ فإن الحرب هي شريعة عامة. والحرب تستدعي الحقيقة من الخفاء إلى الوجود وتنزع عنها الحجاب، إنها تظهر الضرورة، تظهر العقل الكلي. إن الحرب إذنْ هي شريعة المغتربين الباحثين عن التكامل، وبفضل الحرب تتأسس الحقيقة ويتأسس الإنسان ويتأسس العقل. ولهذا يجب الدفاع عن اللوجوس والقتال من أجله أكثر مما يجب الدفاع عن الوطن والقتال من أجل أسوار المدينة.

٥٣ ـ الحرب هي ملك الجميع وأب الجميع أيضاً، ولقد أظهرت البعض على أنهم آلهة وأظهرت البعض الآخر على أنهم بشر، لقد جعلت من البعض عبيداً والبعض الآخر أحراراً.

من أقوال هيرقليطس بصدد الحرب ما أورده جوثري في كتابه «الفلسفة اليونانية» يقول هيرقليطس مستنكراً: «الراحة والهدوء؟ دعوهما للموتى حيث يمتّان لهم» (ص ٤٤٨). وعلى أساس هذه الحرب يتم فرز الناس وتتضح

معادنهم إمّا أن تحررهم وتجعلهم متكاملين ضمن الأيقاظ إذا أرادوا ما هو كلي. لكن إذا أرادوا ما هو جزئي كان مصيرهم أن يكونوا عبيداً ضمن النيام. وسوف يتردد هذا عند الفيلسوف الألماني فريدريك نيتشه في آخر القرن التاسع عشر بدعوته للعيش على الخطر والدعوة للقضاء على أخلاق العبيد النائمين والدعوة لتأسيس أخلاق السادة الأيقاظ.

٨٥ ـ صعب النضال ضد دوافع الإنسان، فمهما يكن ما ترغب فيه إنما تشتريه على حساب النفس.

ويخوض المغتربون الباحثون عن التكامل الحرب على عدة جبهات وأصعبها الحرب داخل النفس فهي حرب ضد رغبات الإنسان الجزئية المباشرة التي تشيّؤه وتدخله عالم النيام. لكن النفس إذا انتصرت تكون قد كسبت نفسها والعالم لأنها تكون قد وصلت إلى الكلي، إلى اللوجوس.

١٣٦ ـ نفوس الناس الذين يستشهدون في المعركة أكثر نقاء من نفوس مَنْ يموتون من المرض.

ولهذا خير للإنسان أن يموت في ساحة الحرب من أن يموت على فراش المرض. إن الموت في ساحة الحرب يعني أن الإنسان يناضل ضد التشيّؤ ويسعى إلى الكمال ليصل إلى مصاف الآلهة. فإذا مات منتصراً فمعنى هذا أنه اكتسب نفساً مطمئنة وانتصرت هذه النفس على النفس الأمّارة بالسوء.

٢٥ ـ كلما عظم المصير أو زاد الأمر شدة كانت المكافأة أو الجزاء أعظم.

ويتحدث الفيلسوف الوجودي الفرنسي المعاصر جان بول سارتر (١٩٠٥ ـ ١٩٨٠) عمّا يسميه «المواقف المتطرفة». فأبطال أعماله الروائية والمسرحية يدخلون مآزق ليس لها إلّا حلان متطرفان، ولهذا يكون الاختيار صعباً كاشفاً عن معدن الإنسان. لكن الجزء الذي يناله البطل باختياره الحق

والسير في طريق الحرب هو اكتساب لنفس أصيلة كلية والقضاء على النّفس المتشيّئة. ·

٢٧ ـ هنالك تنتظر الناس الذين ماتوا أشياء لم تكن تخطر لهم على بال.

وأكبر جزاء يناله المنتصرون في ساحة القتال الوصول إلى ما يسميه الصوفية مرحلة الكشف والمشاهدة حيث تسْطَعُ الحقيقة. لقد كانوا مخفيين ومتحجبين في المشاغل اليومية والجزئية، كانوا متحجبين عن ذلك الذي لا يغيب أبداً. فلمّا خاضوا الحرب رفعوا برقع التحجب وظهروا من الخفاء فتولّدت الحقيقة وانبثق العقل الكلي من أعماق الظلام وفي هذه المشاهدة يرون ما لا عين رأته من قبل ولا خطر ببال أحد.

٢٤ ـ تكرم الآلهة والناس أولئك الذين يُقتلون في ساحة الوغى.

إذا كان على الناس أن يقاتلوا دفاعاً عن العقل الكلي بضراوة أكثر مما يدافعون عن أسوار مدينتهم وأوطانهم، فإن الناس يكرمون من يموتون استشهاداً في سبيل العقل بأكثر مما يكرمون مَنْ يستشهدون في ساحة المعركة.

وخُلِق الإنسان مجادلاً . . .

٢٣ ـ لن يتسنى لهم أن يعرفوا معنى الحق لو كانت الأضداد غير موجودة.

الحقيقة لا تنبثق إلاّ من أرض الضلال. فالضلال أيضاً جزء من بنية الحقيقة. اللاّحقيقة جزء من الحقيقة. فالضدان موجودان. ولرفع اللاّحقيقة لا بدّ من القتال. إن الحرب تُخاض ضد أحد الضدين، إنها حرب الأضداد. والتكامل في صراع مع التشيّؤ وهذه هي ساحة الاغتراب. فالأضداد أكثر أصالة وتأسيساً من حالة الوحدة بعد القتال. ولهذا أخطأ الفيلسوف المعاصر برتراند راسل (١٨٧٢ ـ ١٩٧٠) عندما قال في كتابه «تاريخ الفلسفة الغربية»: «إن هيرقليطس يتحدث أحياناً كما لو كانت الوحدة أكثر أساسية من التنوع».

٤٨ ـ القوس يُسْمِي الحياة ولكن عمله هو الموت.

يتولّد النغم لا من القوس والوتر بل من «صراع» القوس والوتر. إن الضد ليس بمعزل عن ضده بل هو متداخل فيه فالحياة هي موت مؤجل والموت هو حياة مبكرة. إن الذاتية في صراع مع الموضوعية لكنهما على قدم المساواة. يقول هيجل في الجزء الأول من «محاضرات حول تاريخ الفلسفة»: «الذاتية هي (آخَر) الموضوعية وليست مجرد قصاصة من ورق لا معنى لها، ولمّا كان كل منهما هو (آخر) (الآخر) باعتباره (الآخر) الخاص به فإننا نجد هنا هويتهما. هذا هو مبدأ هيرقليطس العظيم» (ص ٢٨٥).

٩١ ـ لا يمكن للإنسان أن ينزل في النهر الواحد مرتين (فيستحيل أن يلمس المادة الفانية نفسها مرتين ولكن من خلال سرعة التغير) تتبعثر المياه وتتجمع ثانية (أو بالأحرى لا تجمع حتى «ثانية» أو «فيما بعد»، لكن التجمع والانفصال متزامتان) وتتقارب وتنفصل.

إن القتال هو الأبدي. هذا هو الشيء الثابت في عالم هيرقليطس. لكن هذا القتال يجدد الحياة لأنه قضاء على التشيّؤ واكتساب للكمال. وعلى هذا فإن العالم في حالة سيلان والتغير قانون الحياة، والصيرورة Becoming هي الحاكمة. يقول هيجل في محاضراته عن تاريخ الفلسفة: «خطوة كبرى في التفكير الانتقال من الوجود إلى الصيرورة حتى لو كانت مجردة باعتبارها الـوحدة الأولى للتحديدات المتعارضة» (الجزء الأول ص ٢٨٥).

٤٩ (أ) ـ في النهر نفسه نحن ننزله ولا ننزله، إننا نكون ولا نكون.

ولقد شاع عند الدارسين أن زينون الايلي (حوالي ٤٩٠ ق.م ـ حوالي ٤٣٠ ق،م.) هو مخترع الجدل Dialectics لكن التفكير الجدلي سبقه فيه هيرقليطس بحديثه عن الصيرورة والتجدد القائمين على صراع الأضداد. إن الجدل ليس قطبين متعارضين فحسب بل هما في حالة حركة وسيلان ويصبُّ كل منهما في الآخر. وكما يقول ستيس في كتابه «تاريخ نقدي للفلسفة اليونانية»: إن (تعاصر) الوجود واللّاوجود هو معنى الصيرورة. إننا في النهر نفسه نكون ولا نكون في الوقت نفسه لا في لحظتين متعاقبتين، بل النهر نفسه يكون ولا يكون في الآن نفسه.

١٢ ـ التلاشي (التبخر). إن أولئك الذين ينزلون النهر نفسه تتدفق من حولهم مياه مختلفة. (والنفوس أيضاً تتبخر أو تتلاشى مما هو جزئي).

يقول جومبرز في كتابه «مفكرو اليونان»: «لقد نوّه هيرقليطس بأن قانون الأضداد متفوّق في الطبيعة على نحو لا يقلّ عن وجوده في الحياة الإنسانية»

(ص ٧١). إن الجدل عند هيرقليطس ليس مجرد مَلَكَة معرفة يتصف بها العقل الإنساني، بل الجدل له وجوده الموضوعي أيضاً، إنه حركة الواقع نفسه، ثم هناك جدل ثالث بين الإنسان الجدلي والواقع الجدلي ومن خلال هذه الشبكية الجدلية يقاتل المغتربون التشيّؤ بهدف الوصول إلى الإنسان الكامل بلغة الصوفية والإنسان الشامل بلغة الفلاسفة.

٥٢ ـ الزمان طفل يلعب لعبة الداما: وتدبير الحكم قائم بين يدي ذلك الطفل.

يروي سكستوس أمبريكوس عن هيرقليطس أنه قال: «الـزمن هو الوجود المجسد الأول» (انظر هيجل «محاضرات حول تاريخ الفلسفة»، الجزء الأول ص ٢٨٦) وهذا هو جوهر الصيرورة. لكن لَمّا كانت الصيرورة ـ كما يوضح ستيس في كتابه «تاريخ نقدي للفلسفة اليونانية» ـ ليست أنه في آن واحد يوجد الوجود وفي الآن التالي العدم، إنما الأمر يعني أن الوجـود واللّاوجود هما في كل شيء وفي الوقت نفسه، يصبح الزمن هو جوهر الصيرورة. لكنه الزمن كما أوضح الفيلسوف المعاصر بول تيليش هو الآن الأبدي Eternal now أو ما يسميه اليونانيون Kairos أي امتلاء الزمن جميعه وإطلاله على الأبدية.

٥٧ ـ هزيون هو معلم الكثيرين وهو لم يفهم لا النهار ولا الليل ذلك أنهما شيء واحد.

إن الجدل كاشف للحقيقة، باحث من خلال الصراع عن الجوهر الواحد. إن المظهر يقول باختلاف الليل عن النهار. هذه هي الـرؤية الخارجية لكن جوهرهما واحد: الزمن الأبدي. وكل ما هنالك إسقاطات من جانب الإنسان حسب منظوره للأشياء. يقول هيجل في الجزء الأول من «محاضرات حول تاريخ الفلسفة»: «هذا الواحد ليس تجريداً، لكنه النشاط الذي يقسم ذاته إلى أضداد» (ص ٥٨٤).

٦ ـ إن الشمس لتتجدد كل يوم.

لكن جوهر هذه الواحدية التجددية: أن الوحدة مؤقتة لكن السيال أبدي لأن الحرب أبدية. يقول فلوطرخس في كتابه «الآراء الطبيعية»: «أمّا أرقليطس فإنه كان يبطل الوقوف والسكون منَ الكل وكان يرى أن ذلك من شأن الموات. وكان يرى أن الحركة السرمدية هي للجواهر السرمدية وأن الحركة الزمانية للجواهر الفاسدة» (عن علي سامي النشار: «نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام» الجزء الأول ص ١٣٥).

٦٢ ـ الخالدون فانون والفانون خالدون.. إن كلاً منهم يعيش موت الآخر ويموت حياتهم.

إن الأضداد ليست منفصلة، بل هي متداخلة. وكما يقول هيدجر في كتابه «ما الميتافيزيقا؟» «إن الموت ليس نهاية لحن الحياة بل هو سارٍ في اللحن منذ أن يبدأ». ويعلّق فيلون السكندري (٣٠ ق م ـ ٥٠ م) على معنى الموت عند هيرقليطس قائلاً:

«إن ما يسميه الموت ليس فناء مطلقاً، بل تغيراً إلى عنصر آخر» (عن جوثري: الفلسفة اليونانية، ص ٤٦٣).

٦٠ ـ الطريق الصاعد والطريق الهابط طريق واحد.

وظاهر الأمر أن المسائل نسبية لكن الباطن أنها مطلقة، إنها الواحدية. أما الإنسان فيدخل منظوره ويسقطه على الواقع. وعلى الإنسان أن يحارب نسبيته حتى يصل إلى الحقيقة الواحدة. إن الطريق الصاعد والطريق الهابط واحد ولكن بعد قهر المظهرية السطحية والحسية وإدراك البُعْد العقلي الكلي.

٥٩ ـ بالنسبة للولب أو القلاووظ فإن الاتجاه المستقيم والملتوي واحد.

إن ما له طبيعة خاصة موجود بالضرورة وسيشق طريقه بحكم هذه الضرورة نفسها سواء التوى طريقه أم استقام.

١٠ ـ الروابط: الكلي وما ليس بكلي، المنفصل ـ المرتبط، المتنافر ـ المتناغم.

إن هناك وحدة تربط بين الأضداد؛ فبرغم التضاد لا يكون كل ضد في عالمه منفصلاً عن الآخر، بل هما ـ بلغة المنطق ـ متضايفان. إن هناك روابط تربط ما بين الكلي وما ليس بكلي، بين المنفصل والمرتبط، بين المتنافر والمتناغم. إن الأضداد محكوم عليها بالاتصال، هناك ضرورة تربط بينها وهي ليست حرة في وجودها المستقل. غير أن اتصالها لا يعني القضاء على مبدأ النزاع فاتصالها أو وحدتها اتصال مؤقت أو وحدة مؤقتة.

١٢٦ ـ الأشياء الباردة تستحيل حارة والأشياء الحارة تستحيل بادرة والمبتل يجفُّ والجافُ يُصَاب بالرطوبة.

وبسبب تداخل الأضداد يتم التحول. إن التغير ليس تغيراً مفروضاً بقدر، بل هو يتم وفق قانون باطني حيث أن الأضداد متعاصرة. فالاستحالة كما سوف يقول أرسطو فيما بعد معناها الكمون؛ إن هناك وجوداً بالقوة أو بالإمكانية قابع داخل الوجود بالفعل أو المتحقق، وهذا الوجود بالقوة ليس شيئاً سالباً لكن له فاعليته وينتظر انبثاقه.

١٢٥ ـ إن مزيج الخمر ينفصل أيضاً إذا لم يتم خلطه.

فإذا هدأ القتال يوماً ما ـ لا بمعنى التوقف التام بل بمعنى السكون النسبي ـ ظهر النقيضان وكأنهما منفصلان بلا جسور تربطهما، ولطغى نقيض على الآخر. والقتال هو الذي سيعيد خلطهما من جديد ليتكوّن مركب جديد بمثل ما نجد في السير الجدلي عند هيجل عندما يتم التحول من الأطروحة إلى النقيض إلى المركب. غير أن المزيج الجديد حاوٍ بدوره لنقيضه ويحتاج هو الآخر للقتال ليتحرّك هو ونقيضه خلقاً لمزيج جديد. فالحقيقة في كل آنٍ ظهور وتَخَفٍّ، ولهذا فإن النزاع مطلوب في كل آن.

١٢٦ (ب) ـ إن الشيء يزداد في اتجاه ما والشيء الآخر يزداد في اتجاه آخر وذلك بالنسبة لما ينقصه.

وهيرقليطس يحذرنا من اعتبار النقيضين على طرفي مساواة تامة وإلّا انتهى الصراع. وهذه نقطة محورية في تفكيره وفي جدله. لكن النقيض في نفس الوقت لا تكون له الغلبة التامة وإلّا انفـرد بالعالم وانتهى النزاع. وربما استمدَّ هذا من مفهوم الآبيرون عند الفيلسوف اليوناني أنكسماندر فهذا الآبيرون يحتوي كل العناصر لكنه لا يسمح بطغيان عنصر على بقية العناصر وإلّا اختفت طبيعته اللّامتناهية واللاّمحدودة كيفاً وكمّاً. وكل هذا من أجل أن تظل الحرب سيدة الجميع. يقول جوثري في «الفلسفة اليونانية»: «هناك قانون في العالم لكنه ليس قانون الدوام بل هو فحسب قانون التغير. أو بطريقة التشبيه هو قانون الغابة حيث أن كل ما يظهر إلى الوجود يتم بالنزاع، والحرب هي سيدة الجميع» (ص ٤٦١).

٨٨ ـ وأيّ ما يكون فينا فإنه نفس الشيء: الحياة والموت، اليقظة والنوم، الشباب والشيخوخة أيضاً، فالطرف الأخير (من كل زوجين من الأضداد) وهو يتغير إنما يتحول إلى الطرف الأول وهو يتغير يصبح الطرف الثاني.

إن هيرقليطس يركّز على أن يحمل السلام سيفاً من أجل أن يحقق رسالته وهذا كان موضع نزاع مع معاصريه. يقول جوثري في «الفلسفة اليونانية»: «لب نزاع هيرقليطس مع المفكرين الآخـرين يبدو أنه يكمن في تمرده ضد مثالهم عن العالم السلمي والمتناغم» (ص ٤٤٨).

١٠٣ ـ البداية والنهاية شيئان عموميان في محيط الدائرة.

هذه هي حلقة الجدل. إن الأضداد في حالة حركة، لكن لا يُعرَف متى بدأت هذه الحركة ومتى تنتهي. فالبداية داخلة في نسيج النهاية والنهاية مفترضة منذ البداية. إن غاية الحرب السلام، لكن السلام سلام محارب من أجل تأسيس نفسه والإثنان متناسجان في محيط الدائرة نفسه.

وخُلِق الإنسان نارياً. . .

٨٤ (أ) ـ إن النار الأولية تستقر من خلال التغير (النار الأولية في الجسم البشري).

إن الجدل نفسه، بحكم أنه نزاع، له طبيعة نارية لأن النار ليس لها مستقر، بل هي شعلة مضطرمة حية. وجوهر النار التغير ومستقرُّها الأول الإنسان. . . إن الإنسان هو في الأصل ساحة الحرب ضد التشيّؤ قبل أن ينقل ساحة الحرب للعالم. إنها نار محرقة للتشيّؤ ولكنها في الوقت نفسه هي نور الهداية وهذه طبيعتنا الجدلية. يقول هيدجر: «إن الإنارة لا تقتصر على إضاءة الكائن وإنما هي قبل ذلك تجمعه وتؤمنه في الكينونة. . . إن الآلهة والبشر لا يستضيئون فحسب بنور معين. . . إن النور يغمر ماهيتهم. إنهم مستنيرون أي مجمعون في حدث الإنارة. ولهذا السبب فهم لا يحجبون أبداً بل يكشفون» (نداء الحقيقة: ٤٠٦).

٦٦ ـ إن النار وقد خيّمت عليهم سوف تحكم على جميع الأشياء وتقضي فيما بينها.

إن هذه النار المقاتلة تحكم بالعدل فتفرِّق بين التشيّؤ والتكامل وهي تعاقب الأول بالإحراق وتكافىء الثاني بأن يكون نور الهداية. يقول هيدجر في «نداء الحقيقة»: «هيرقليطس حين يتكلم عن النار يفكِّر قبل كل شيء في الإضاءة» (ص ٤٠٠) ويضيف قائلاً: «لقد اكتشف كارل رينهارت. . . أن

النار عنده تدل في نفس الوقت على معنى المتفكِّر. . . الذي يهدي كل إنسان إلى الطريق» (ص ٤٠٠ ـ ٤٠١).

٦٤ ـ إن النار توجِّه العالم.

إذنْ النار هي العقل الكلي نفسه والتي تهدي المغترب لكي يخرج من عالم النيام إلى عالم الأيقاظ. وعلى هذا فالنار توجِّه العالم. إن هذه النار كلها جـدل وهي على حد قول هيجل: «هي الزمن الفيزيائي، هي القلق المطلق، التحلل المطلق للوجود، الانتقال من جانب (الآخر) لكنه الانتقال أيضاً لذاته ومن ثمَّ نستطيع أن نفهم كيف يسمى هيرقليطس النار فكرة العملية أو السيرورة Process» (محاضرات حول تاريخ الفلسفة، الجزء الأول ص ٢٨٧).

٩٠ ـ هناك تبادل: فكل الأشياء للنار والنار لكل الأشياء، مثلما يتم تبادل السلع بالذهب والذهب بالسلع.

إن النار عنده هي رمز للتكامل، ولهذا فإنه يوحِّد بينها وبين الأرباب. يقول جوثري في «الفلسفة اليونانية»: «عندما يتحدث عن الأرباب أو ما هو إلهي، واضح أن ما في ذهنه هو اللوجوس ـ النار» (ص ٤٧٢) وعلى هذا هي المعدن الأصيل الذي على أساسه تقيِّم الأشياء ويتم تبادلها بها بـل إن الصيرورة تنبع من النار لتصبَّ ثانية فيها.

٣٦ ـ النفوس التي تصبح ذات طبيعة مائية وتغرق فيما هو جزئي مصيرها الموت، بمثل ما أن المياه يميتها أن تصبح أرضاً. ومن الموت يظهر الماء ومن الماء تظهر النفس.

يقول ستيس في كتابه «تاريخ نقدي للفلسفة اليونانية» إنه كلما كانت هناك نار كان هناك مزيد من الحياة ومزيد من الحركة. وكلما كانت هناك مواد أكثر حلكة وثقلاً كان هناك مزيد من الموت والبرد واللاّوجود.

٧٦ ـ النار تعيش موت الأرض والهواء يعيش موت النار، والماء يعيش موت الهواء والأرض تعيش موت الماء.

إن النار هي وحدة الأضداد، لكنها وحدة مؤقتة، هي وحدة طاردة لأحد الأضداد ولذلك فهي في جوهرها ليست مادة بقدر ما هي عملية. وقد أدرك هذا الفيلسوف المعاصر برتراند راسل في كتابه «تاريخ الفلسفة الغربية» عندما قال: «النار هي شيء يتغير باستمرار ودوامها هو دوام عملية أكثر منه دوام مادة» (ص ٦٥).

٣١ ـ أول تغيرات النار: البحر، ومن البحر النصف أرض والنصف الآخر مزراب من الماء الحار.. إن الأرض تسيل وتستحيل إلى بحر وتعود إلى قدرها بمقتضى القانون القائم قبل أن تصبح أرضاً.

وهذه النار في حركتهامحكومة، محكومة بكونها العقل الكلي، محكومة بالعدل، إنها تسمح بالجدل، تسمح بصراع الأضداد، لكنها لا تسمح بانتهاء الحرب. إنها كلها تحولات، لكنها محكومة بقانون العدل، وقانون العدل هو قانون الحرب. وفي هذا يقول راسل بلمحة عبقرية: «إن ميتافيزيقا هيرقليطس ـ مثل ميتافيزيقا انكسمندر ـ يسودها تصدّر العدالة الكونية التي تمنع حرب الأضداد من أن تنتهي بانتصار تام لأحد الضدين» (تاريخ الفلسفة الغربية ص ٦٣).

٣٠ ـ هذا الكون المنظم والذي هو واحد بالنسبة للجميع لم يخلقه إله من الآلهة أو إنسان من البشر، لكنه كان ويكون وسيكون للأبد شعلة حية تضطرم بمقدار وتنطفىء بمقدار.

إن النار بحكم أنها عقل كلي فإنها هي أيضاً العالم كله. إنها ليست مجرد مَلَكَة لدى الفرد ذات طبيعة نارية، بل هي الكون نفسه، لأن الكون كله عقل. إن الكون إذنْ جدلي، والجدل ليس مقولة ذاتية بل أصبح ذا طابع

موضوعي. والنار هو حركة هذا الجدل ولهذا فهي حركة العالم. إن النار هي الزمن كله فالنار هي ما يبقى برغم كل صراع. إنها أصل الصراع وهي التي تغذّيه وهي المتبقية بعد كل صراع فهي شعلة حية كانت وستظل للأبد.

١٢٣ ـ إن الطبيعة تحب أن تتخفى.

لكن هذا الكون لا تتضح طبيعته النارية دفعة واحدة، إن النارية تتخفى. والإنسان هو الآخر ناريته تتخفى. إن الحجاب مسدل عليه وعلى الكون، فالطبيعة تحب أن تتخفى وعليه أن يرفع الحجاب. ويقول كليمنس السكندري (حوالي ١٥٠ ـ ٢١٥):

«ربما استطاع إنسان أن يتخفّى بعيداً عن النور المدرك المحسوس ولكن من المستحيل عليه أن يفعل ذلك مع النور الروحي» (عن هيدجر: نداء الحقيقة ٣٦٨).

٩٩ ـ إذا لم تكن هناك شمس واعتمدنا للغاية على النجوم الأخرى فسوف تكون الدنيا ليلاً حالكاً.

إذا لم تسطع شمس الحقيقة فلن نبين حدود النائمين من حدود الأيقاظ ولاختلط الحابل بالنابل.

٩٤ ـ إن الشمس لا تتجاوز مداراتها، وإلاّ فإن ربّات العدالة توقفها عند حدها.

هذه هي نار الحقيقة الحارقة والهادية: الحارقة للمتشيّئين والهادية للكاملين. وهي بهذا لا تتجاوز حدودها. فحدودها تقليص الأرض تحت أقدام النائمين وتوسيعها تحت أقدام المستيقظين.

١٠٠ ـ (الشمس هي حارسة تغيرات الفصول) والساعات (الفصول) التي تظهر الأشياء جميعاً.

إن شمس الحقيقة هي موضحة الحدود، وهي حارسة هذه الحدود حتى لا يختلط عالم الأيقاظ مع عالم النيام. وهي تحدد لكل عالم أوَانَ مجيئه ومتى يطرد أحدهما الآخر.

وخُلِق الإنسان عاشقاً. . .

٨ ـ إن ذلك الذي في تعارض لهو الشيء المتماسك، ومن الأشياء التي تختلف يظهر أجمل تناغم.

لكن الهدف من الصراع أو من الطبيعة النارية المتحركة طرد التشيّؤ وإحلال الكمال، ومن ثمَّ فالهدف هو الوصول إلى بر أمان، الوصول إلى تناغم وتأسيس محبة. لكن الحب لا ينشأ إلّا من الصراع. يقول جوثري في «الفلسفة اليونانية»: «مذهب تناغم الأضداد له ثلاثة جوانب: كل شيء مكوّن من الأضداد ومن ثمَّ تخضع للتوتر الداخلي. الأضداد متماثلة، والحرب هي القوة الحاكمة والخلّاقة وهي الحالة الحقة والسليمة للأمور» (ص ٤٣٩).

٥١ ـ إنهم لا يفهمون كيف أن ما يختلف مع نفسه هو في اتفاق: فالتناغم قائم في التوتر بين الأضداد، مثل التناغم القائم بين القوس والقيثارة.

يقول برتراند راسل في كتابه «تاريخ الفلسفة الغربية»: «إن البحث عن الشيء الدائم هو غريزة من أعمق الغرائز التي تقود الإنسان إلى الفلسفة وهي مستمدة بلا شك من حب الوطن والرغبة في الحصول على مأوى من الخطر» (ص ٦٤). وهذا هو معنى التناغم عند هيرقليطس، إنه روح التجميع من المختلف. إن التناغم هو العقل الكلي و «في تفكير هرقليطس عن وجود (حضور) الموجودات يبدو العقل على أنه الطرح الذي يجمع» (هيدجر: التفكير اليوناني المبكر ص ٧٦). ويقول هيدجر أيضاً: «الجميع يمت

إلى الجميع الذي يحضر الأشياء ويضعها تحت المأوى. إن المسكن يحكم الإيواء؛ المسكن بدوره محكوم عليه بالحفاظ» (ص ٦١).

٥٤ ـ التناغم الخفيُّ أقوى من التناغم المرئي.

إن الصلح بين خطيبين مختلفين على مَنْ يشتري أدوات المطبخ هو تناغم خارجي تدبره أسرتا الطرفين، ولكن ألاّ تُقَام العلاقة بينهما على التفرقة بينهما وعلى المصالح المادية بل على الرابطة الروحية لهو التناغم الخفيُّ، ومن ثمَّ تستحيل الرابطة إلى ضرورة لا يمكن أن تنفصم. يقول هيجل: «إنه يسمي هذه الوحدة في التضاد القدر أو الضرورة. وفكرة الضرورة ليست شيئاً آخر غير هذا، ذلك التعين يشكل مبدأ الموجود كفردي ولكنه بهذه الطريقة عينها يربط بضده: هذه هي الرابطة المطلقة التي تتخلل الوجود ككل» (محاضرات حول تاريخ الفلسفة، الجزء الأول ص ٢٩٣).

١٢٤ ـ إن أعدل الأكوان ليس إلّا كومة من التراب تجمّعت كيفما اتفق.

لقد فسَّر مفكرو الإسلام معنى الضرورة عند هيرقليطس بالبخت واعتبروهما شيئاً واحداً. إن الكون العادل معناه تحقق العقل الكلي دون أن يطغى على الحدود وهذا يتم بالضرورة من منظوره أو كيفما اتفق من منظور الإنسان الجزئي. إن تحقق العدالة جزء من بنية العقل الكلي الذي يحقق ذاته من خلال التجميع.

٣٩ ـ في بريني ولدت القوة ابنة التكرار، والتي تُعدّ شهرتها (أو قيمتها) أكبر من بقية الخلق.

إن الحب ليس مجرد عاطفة، ولكنه قوة، قوة قهر التشيّؤ وتأسيس التكامل بإقامة العدل، والعدل يكون عادلاً بسبب ما فيه من حب حيث يريد أن يساوي بين الطرفين. هذا ما سوف يردده فيما بعد الفيلسوف المعاصر بول

تيليش في كتابه «الحب والقوة والعدالة». إن القوة تتكرر وتكرارها يعني مواصلة قهر التشيّؤ، إنها قوة مقاتلة، قوة طاردة، لكنها في الوقت نفسه قوة مؤسسة للعدالة.

وخُلِق هيرقليطس جميلاً...

١٠١ ـ لقد نقّبت في نفسي.

فإذا كانت فلسفة هيرقليطس قائمة على مجاهدات المغترب للتخلّص من تشيّئه وتأسيس تكامله، وإذا كانت فلسفته دعوة للاستيقاظ من عالم النيام، أفلا يمكن أن يكون قد مارس هذه الفلسفة وحاول أن يستيقظ؟ لقد بدأ مرحلته بالتنقيب في نفسه. يقول برتراند راسل: «لقد اعتبر النفس خليطاً من النار والماء، النار نبيلة والماء حقير» (تاريخ الفلسفة الغربية ص ٦١)، وأراد هو أن يصل إلى المرتبة النارية. إنه لم يرد أن يتبع إلّا نفسه. يقول ديوجين اللّائيرسي (القرن الثالث): «لم يكن تلميذاً لأحد، بل يُقال إنه بحث في نفسه وتعلّم كل شيء من نفسه» (جوثري: الفلسفة اليونانية ص ٤١٦).

٤٥ ـ أنت لن تتمكن من أن تجد أغوار النفس مهما قطعت جميع الدروب خلال سعيك: فلوجوس النفس أو قانونها العام عميق للغاية.

فماذا وجد هيرقليطس بعد أن نقّب فيها؟ لقد وجد أن العقل كلي ولهذا لا يمكن الإحاطة به معرفة ولا ممارسة وسلوكاً على نحو مطلق. لقد اكتشف أن الحقيقة هي الوعي بالكل ولهذا فإن الوعي الكلي عميق للغاية. يقول هيجل: «الوعي كوعي بالكل هو وحده الوعي بالحقيقة، لكن الوعي بالفردية والفعل كفردي هو غير الحقيقي» (محاضرات حول تاريخ الفلسفة، الجزء الأول ص ٢٩٦).

١١٨ ـ إن النفس الكلية (التجمعية) هي أحكم النفوس وأفضلها.

لقد اكتشف هيرقليطس وقد نقَّب في نفسه، أن نفسه يجب أن تستحيل إلى نفس كلية وتخرج من جزئيتها. لقد «عرف الإسلاميون هيرقليطس عن طريق كتاب أثولوجيا المشهور. إن أثولوجيا يذكر أن هيرقليطس أمر بالطلب والبحث عن جوهر النفس والحرص على الصعود إلى العالم الشريف وقال: إن مَنْ حرص على ذلك وارتقى إلى العالم الأعلى جوزيٍ بأحسن الجزاء اضطراراً. فلا ينبغي لأحد أن يفتر عن الطلب والحرص والارتفاع إلى ذلك العالم وإنْ تعب ونصب فإن أمامه الراحة التي لا تعب بعدها ولا نصب. ويذكر صاحب أثولوجيا أنه إنما أراد بقوله هذا تحريضنا على طلب الأشياء العقلية لنجدها كما وجدها وندركها كما أدركها» (عن: علي سامي النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، الجزء الأول ص ١٣٦).

١١٥ ـ للنفس قانونها (أو عقلها الكلي) الذي يزيدها (أي ينميها وفق احتياجاتها).

إن عملية التنقيب في النفس في حدِّ ذاتها أثراء للنفس لأن التنقيب أولى الخطوات لاكتشاف أغوارها وحدودها.

١١٦ ـ جميع الناس لديهم المقدرة على معرفة أنفسهم والسلوك باعتدال.

وهذه القدرة ليست قاصرة على هيرقليطس؛ فالعقل الكلي واحد في الجميع، والقدرة على الاستيقاظ قدرة مشتركة. وشرطها كما يقول بول تيليش في كتابه «زعزعة الأساسات» الاستعداد. لكن شرطها الثاني أيضاً ألّا يكون الإنسان قد وصل إلى مرحلة التشيّؤ التام. فلا يكون قد دخل عالم النيام فحسب، بل لا يكون قد دخل عالم الموتى حيث لا رجوع.

٦١ ـ إن ماء البحر هو أنقى المياه وأشدها تلوثاً في الوقت نفسه: وهو بالنسبة

للسمك ماء صالح للشرب وباعث على الحياة، لكنه بالنسبة للإنسان غير صالح للشرب ومدمر للحياة.

إن الحقيقة ملتبسة، إنها ليست زجاجات كوكا كولا موضوعة على الرف نمد يدنا فنحضرها بل الحقيقة خفية مطوية. وهذا هو المعنى الخفي لعبارته وربما كانت سبباً في اعتباره مصدر نزعة الشك عند السوفسطائيين «لقد اتهم النوبختي هيرقليطس فعلاً بأنه أب الشك والسفسطة يقول النوبختي (ومن هؤلاء السفسطائيين مَنْ قال: إن العالم في ذوب وسيلان. وقالوا: ولا يمكن الإنسان أن يتفكّر في الشيء الواحد مرتين لتغير الأشياء دائماً». (عن علي سامي النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، الجزء لأول ص ١٣٩).

٥٥ ـ إن تلك الأشياء التي كلها بصر وسمع ومعرفة هي الأشياء التي أقدرها أكثر من غيرها.

إن هيرقليطس لا يقدر إلاّ العقل وماله صلة بالعقل. لهذا فإنه بجانب العقل يمجِّد البصر والسمع. لماذا؟ لأن هاتين الحاستين هما الحاستان الوحيدتان المرتبطتان بالعقل. فنحن عندما نسمع لا نسمع مجرد أصوات بل نميز هذه الأصوات ونحدد أصحابها. وعندما ننظر لا نرى مجرد أشياء أمامنا بل نرى علاقات بينها. والذي يقوم بهذا الربط هو العقل. وسوف يتردد تمجيد هيرقليطس لحاستي البصر والسمع فيما بعد عند أرسطو في العالم القديم ثم عند هيجل في العصر الحديث ولقد قصر كلا الفيلسوفين الفن على هاتين الحاستين لأن الفن عندهما نتاج عقلي يتبدّى من خلف ستائر الإحساس.

١٠١ (أ) ـ إن العيون شهود أكثر عدلاً ودقة من الآذان.

بالرغم من أن العقل يلعب دوره في حاستي السمع والبصر، إلاّ أنه يلعب دوراً أكبر في الإبصار، لأنه يحدد القبل والبعد، والقرب والبعد، ويحدد على نحو أشد العلاقات ويرتبط بالتاريخ؛ فالبصر حاسة أكثر تركيباً من السمع لأن العقل يلعب دوراً أكبر في حاسة الإبصار.

١٢١ ـ خير لكل راشد من أهل أفسوس، أن يشنق نفسه وأن يترك دولة مدينته للشباب وذلك لأنهم قد طردوا هرمودوروس خيرتهم بقولهم: «لا يجب أن نحتفظ حتى بإنسان واحد ذي قيمة، وإذا وجب علينا هذا فلندعه يذهب إلى أي مكان آخر ويعيش بين الآخرين».

لقد نقَّب هرقليطس في نفسه واكتشف العقل الكلي. ولقد نقَّب في مدينته أفسوس وهي المدينة التي هبطت فيها فيما بعد مريم العذراء فاكتشف فساد معظم أبنائها وتشيّؤهم ولهذا جاءت رغبته في تطهيرها فدعا إلى فلسفته الجديدة الممجدة للإنسان الساخطة على التشيّؤ والمقاتلة ضده لتأسيس التكامل.

١٢٥ (أ) ـ آمل ألّا تفلتوا من لعنة الثروة يا رجال أفسوس حتى تقعوا ضحية شركم!.

وحتى يطهِّر المدينة أراد هيرقليطس أن يصل سكانها إلى أعماق التشيّؤ حتى يأتي التطهير مكتسحاً. وذروة التشيّؤ تشيّؤ المال. لقد أدرك هيرقليطس في هذا الزمن السحيق أن المال هو قواد بين الإنسان والعالم وأنه المصدر الأساسي للاغتراب والتشيّؤ، فالمال هو الذي ينحي الإنسان الكامل عن عرشه وينصِّب مكانه إنساناً متشيّئاً ثم يسجد له. فالمال إذنْ هو العمل المغترب وهو يكسب الإنسان صفات ليست له على نحو ما صوّر شكسبير في مسرحيته «تيمون الأثيني»: «هذا العبد الأصفر، يبارك الملعون، ويجعل المجذوم المشوّه معبوداً، وينصِّب اللصوص ويعطيهم مكانة وموقعاً. أيها العاهر العام للبشرية الذي يضع النفايات بين حشد الأمم».

٨١ ـ (عن فيثاغوراس) كبير الغشاشين.

يعتبره هيرقليطس أكبر نصاب لأنه يقول بتناسخ الأرواح ويُعدّ بهذا حلقة في عالم النيام الذين يجب قتالهم.

١٢٩ ـ فيثاغوراس ـ ابن فيسارخوس ـ مارس البحث بشكل أفضل من جميع الناس واستخرج عبراً من هذه الأبحاث وألَّف حكمة خاصة به، إنها تراكم من المعلومات، وهذه مهنة خطرة.

ولا يزال هيرقليطس يهاجم فيثاغوراس الذي ظن أن المعرفة تراكم معلومات، بينما المعرفة الحقة هي الرؤية الكلية.

٤٢ ـ إن هوميروس يستحق أن يُنحَّى جانباً عن المسابقات الأدبية ويُلقَّن علقة ساخنة، والأمر نفسه يستحق آرخيلوخوس.

حلقة أخرى من حلقات النائمين الذين يرى هيرقليطس ضرورة قتالهم فالشعراء الشعبيون لا ينطقون بالحقيقة بل بما يرضي العامة.

١٠٥ ـ لقد كان هوميروس نصابا.

إن هيرقليطس يهاجم بعض معاصريه والسابقين عليه ممَنْ اتخذوا التشيّؤ طريقاً لهم. إنه يهاجم في هوميروس اهتمامه بأن يكتسب العامة بأقوال في شعره لا تصمد للحقيقة بل هي تتملَّق الأحاسيس العامة. ولعلَّ هجوم هيرقليطس على هوميروس هو بذرة هجوم أفلاطون على شعراء المحاكاة المقلدين لعالم الحواس لا عالم العقل مطالباً بطردهم من جمهوريته.

٥٦ ـ الناس ينخدعون في إدراك الأشياء المرئية بنفس ما يخدع هوميروس الذي هو أحكم جميع اليونانيين، فلقد خدعه أيضاً الأولاد الذين يتلاعبون والذين قالوا: « إن ما رأيناه والتقطناه قد خلّفناه وراءنا، ولكن ما لم نره ولم نلتقطه هو الذي حملناه وأحضرناه معنا».

بغيبة العقل تغيب الحقيقة، وتأسس المعرفة السطحية الجزئية وهذا ما كان يعيب الشاعر هوميروس، فهيرقليطس دائم النقد له بسبب تغلغل أشعاره في نفوس اليونانيين مما أفسدهم وجعلهم لا يتطلعون إلى المعرفة العقلية.

١٠٦ - (يلوم هيرقليطس الشاعر هزيود على اعتباره بعض الأيـام سيئة وبعضها الآخر رائعة). إن هزيود ليس على بيّنة أن طبيعة الأيام جميعاً واحدة.

إن هيرقليطس يهاجم الشاعر هزيود، الشاعر التعليمي لأنه أخذ التعليم من الخارج على أنه تراكم معلومات، غير مدرك أنه لا فرق بين الليل والنهار لأنهما من طبيعة زمنية واحدة، لأن هيرقليطس لا يبحث عن «الآن» بل يبحث عن امتلاء الزمن، زمن الكاملين المستيقظين.

١٣٥ - أقصر طريق للشهرة أن يصبح الإنسان خيّراً.

هذا على عكس ما هو شائع. إن طريق الخير وعر لكنه أقصر الطرق. وجاء في مسرحية «الشيطان والرحمن» لجان بول سارتر أن ارتكاب الشر سهل لهذا راهن البطل على ارتكاب الخير.

٤٩ - تعادل قيمة الفرد في نظري عشرة آلاف شخص لو كان هو الأفضل.

هذا لو كان من الأيقاظ، المغتربين الكاملين الباحثين عن العقل الكلي الموحِّد المؤسس للأرض المشتركة، أرض الحب.

٩٢ - إن العرّافة، بفم يتحدث بحماس، تلفظ كلماتها العبوسة الجهمة الجافة وتنشرها عبر ألف سنة بصوتها من خلال (إلهام) الآلهة.

واضح غرابة هذه الشذرة بالنسبة لتفكير هيرقليطس الذي يتحدث من داخل العقل الكلي والبحث عن عالم الأيقاظ.

١٢٢ - (كلمة من أجل) التقدير النسبي.

واضح أن العبارة مقتطعة من سياق فلا يمكن تبين شيء منها.

١٢٦ (أ) - بمقتضى قانون الفصول، يقترن الرقم سبعة بالقمر وينفصل عن مدارات الدب الأكبر. وهذه علامات الذكرى الخالدة.

واضح أن هذه الشذرة لا تتفق وروح هيرقليطس.

١٣٨ ـ (مثل متأخر عن الحياة: ليس له طابع هيرقليطس).

. . . . . .

١٣٩ ـ (وثيقة مزورة خاصة بالتنجيم من العصر البيزنطي).

التنجيم بطبيعة الحال مخالف للروح العامة لهيرقليطس. وهذه الشذرة مشكوك في صحتها.

٩٣ ـ إن الرب الذي تقوم معجزته في معبد دلفي لا يفصح ولا يخفي ولكنه يلمِّح.

وحتى يخرج المتشيّئون من عالمهم وجّه إليهم هيرقليطس دعوة للتفكير، واختار أسلوب التلميح لا التصريح حتى يفكروا معه فالتفكير «فعل» لا إسم. ومن هنا صارت الأسطورة بأنه الفيلسوف الغامض أو الملغز أو الكئيب «فالمبشِّر ابن فانك يذكره تحت إسم (يراقليطوس الظلمي) نسبة إلى الظلمة» (عن علي سامي النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، الجزء الأول ص ١٣٦). كما أن «أفلوطين اشتكى في تساعاته: يبدو أنه يتكلم مبتسماً غير عابيء بأن يجعل معناه واضحاً وربما يرجع السبب إلى أنه في رأيه يجب أن ننقب في أنفسنا كما فعل هو بنجاح» (جوثري: الفلسفة اليونانية ص ٤١١). ويقول هيدجر: «يوصف هيرقليطس بأنه المظلم وسوف يحتفظ في المستقبل بهذا الإسم. غير أنه هو المظلم لأنه بالسؤال يتجه بفكره نحو الإنارة» (نداء الحقيقة: ص ٤١٢). إنه نار حارقة للنيام ونورٌ هادية للأيقاظ». وأكبر قيمة له هي ـ على نحو ما أوضح هيدجر: «إن هيرقليطس كمفكر لم يمنحنا إلاّ أن نفكر» (التفكير اليوناني المبكر ص ٧٢).

١٨ ـ إذا لم يكن لدى الإنسان الأمل فلن يجد ما كان يتوقعه، فلا يوجد مسلك آخر يفضي إليه ولا درب.

جاء في كتاب «هيرقليطس فيلسوف التغير» لعلي سامي النشار وآخرين أن ديوجين اللائيرسي يسمي هيرقليطس «كاره البشرية» (ص ١٥)، فهل الذي يتحدث عن الأمل هو كاره للإنسان؟ إن هيرقليطس يعرِّف الإنسان بقدرته على الأمل. لقد سبق عالم النفس الأمريكي المعاصر إريك فروم في كتابه «ثورة الأمل» عندما قال إن جوهر الإنسان هو أنه حيوان آمل إذا كفَّ عن الأمل كفَّ عن الحياة. وإذا كان هيدجر يقول عنه إن كل ما أعطانا إيّاه هو أن نفكر فقد أعطانا الأمل رفيقاً لهذا الفكر. ولكنه الأمل الذي يقاتل، وإن «الرجل الذي قال (في التفكير تكمن الراحة) لن يتردد في القول (في الحرب نكون في السلام» (جوثري: الفلسفة اليونانية ص ٤٤٤).

الفهرس

جدل الحبّ والحرب

أوّاه من أولئك الذين لا يعرفون كيف ينصتون أو كيف يتحدثون.

(هيرقليطس، شذرة ١٩)

يفضل خيرة القوم شيئاً واحداً على ما عداه ألا وهو المجد الخالد بين الفانين. أمّا الغالبية العظمى فتقنع بأن تكون كالسائمة التي تقتات.

(هيرقليطس، شذرة ٢٩)

إذا تكلمنا بالعقل أو بالحكمة فيجب أن نؤسس قوتنا على ما هو مشترك بين الجميع بمثل ما تؤسس المدينة قوتها على القانون (العقل) بل على نحو أقوى. ذلك أن كل القوانين الانسانية تتغذّى بقانون واحد هو قانون إلهي وهذا العقل يحكم إلى المدى الذي يشاؤه وهو كافٍ للجميع بل هو أزيد من الكفاية.

(هيرقليطس، شذرة ١١٤)



الثمن ١٠ ليرة لبنانية أو ما يعادلها

دار التنوير للطباعة والنشر ص. ب: ٦٤٩٩ ـ ١١٣ بيروت ـ لبنان.